المشرق

نزهة القلوب في الرحلة الى قطب الجنوب

للاب لويس دي انسلم مدرّس التاريخ والجغرافية في كلّية القديس يوسف

في مقالتنا السابقة (المشرق ٤: ٥١٣) وصفنا على سبيل الايجاز تاريخ الرحل التي باشرها صناديد الرجال الى القطب الشمالي وما اكتشفوهُ هناك من الآثار الجليلة. بيد ان هذه المقالة تستدعي نبذةً اخرى تكون بَكتتمة لها اعني وصف الرحلات الى القطب الموازي للشمال وهو القطب الجنوبي

اعلم ان جهات هذا القطب لا تُعرف حتى الان كما يُعرف القطب الشمالي. وعلّة ذلك ان القطر الجنوبي اشبه بجزيرة تحدق به البحار من كل صوب وتفصلهُ عن كلّ اقطار العالم

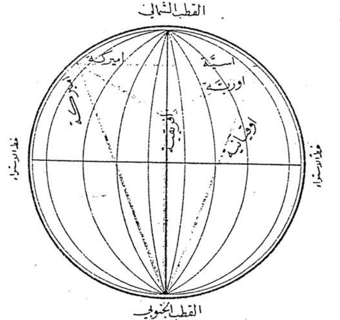
وان طلبتَ اقرب برّ اليهِ وجدت الرأس هورن في اميركة وهو يبعد عنهُ ١٠ درجات (١١١٠ كيلومتر). ثم تأتي بعدهُ بلاد طسمانية في اوسترالية ومسافتها عنهُ ٢٠° (٢٢٢٠ كيلومتر) ثمَّ رأس الرجاء الصالح الافريقيّ وبعدهُ عنهُ ٣٠° (٣٣٣٠ كيلومتر) واذا تجاوزت هذه النقط الثلاث ميممًا القطب وجدت البحار متداخلة في بعضها تمتزج مياهها وهي الاوقيانوس الاتلنتيكي والاوقيانوس الهندي والاوقيانوس الباسيفيكي

وربَّ قارئ يعترض علينا بقولهِ: وكيف عرف ارباب العلم انَّ هذه البحار لا تجتمع في القطب الجنوبي وان وسطها برًّا متجمدًا متراكم الجليد. ولِمَ لا يكون القطب الجنوبي بحرًا كالقطب الشمالي او بالحري مجمع البحار الثلاثة السابق ذكرها

نقول لحل هذا المشكل انَّ الامر لا يخلو حتى الان من بعض الابهام لان الرحّالين

لم يتثبّتوا الامر وانّما حملوا قولهم على عِلَل حدسيّة هي اقرب الى الحقيقة. واول دليل استندوا اليه انّ اصحاب الاسفار الى القطب الشمالي مهما اقتربوا منهُ لم يزالوا يجدون غمر البحار تحت الجليد الذي يكسرونهُ بادواتهم. امّا قصّاد القطب الجنوبي فبخلاف ذلك لا يزالون يكتشفون جزائر متعدّدة تلوح لهم من كل الجهات بقدر ما يتقدمون الى الامام. واذا سبروا المياه التي يخوضون غمراتها وجدوا قعرها يتصاعد والارض منها على عمق نحو ٥٠٠ متر بل اقل فاستدلوا بذلك على انهم لو بلغوا مركز القطب لوجدوا البرّ. وممّا ايّد ظنّهم انهم وجدوا بقايا من النبات التي لا تنبت عادةً الّا في البرّ او بقربهِ

فهذه الملاحظات وغيرها ايضاً ادّت بالعلماء الى ان يثبتوا كون القطب الجنوبي برّاً يتّصل ببلاد افريقية واميركة واوسترالية. وقد تعمّق في هذا البحث احد ائمّة الانكليز الاستاذ ل. غرين (L. Green) فارتأى لتركيب الارض رأياً يدلّ على دقّة فكر وتوقّد فهم فقال: لا يخفى انّ سيارتنا الارضيّة على شكل كرة فاذا اعتبرنا فيها البحور والبرور وجدنا ان البحور كدائرة لها امّا البرور في هذه الكرة فهي على هيئة هَرَم



هيئة نواة الارض . بالنسبة الى البحار

مثلث رأسهُ ينتهي الى مركز القطب الجنوبي وجانباهُ الاعليان كوتر للقوس الشمالي. وهذا المثلث داخل في المياه التي تنغمر منهُ المياه قعورًا هي البحور وما نتأ منهُ هي جوانبهُ الثلاثة مع الرأس الجنوبي (انظر الشكل السابق)

وان سأل سائل كيف الكرة الارضيَّة اتخذت هذا الشكل اجبنا ان الارض كانت في البدء شديدة الحرارة وقشرتها بالنسبة الى نواتها رقيقة فلما خفّت حرارتها الداخليَّة وبردت قشرتها تقلّصت فنبرت منها بعض اقسامها وتقعّرت أُخرى او تشقّقت فتكوَّنت من ذلك الوهاد والجبال والبحور. وزاد العلامة الشهير المسيو لاباران (Lapparent) انك اذا لحظت في احد جوانب الارض قعورًا وجدت في الجانب الآخر اي في البلاد المتناظرة (antipodes) نتوءات تناسبها. وقد ضرب المسيو غرين مثالًا لبيان هذه النواميس الطبيعيَّة في تركيب الارض وهو مثال كرة من الكاوتشوك (المطّاط) تنفخها فتكون تامَّة الاستدارة واذا ادخلت فيها الهواء رويدًا رويدًا تجعَّدت وتقلَّصت حتى يعود شكلها قريبًا من الشكل المثلَّث. والملاحظات الحديثة التي اثبتها ارباب الاسفار تؤيد رأي المسيو غرين وتحملنا على ان نكرّر ما قلناهُ سابقًا ان الارجح كون القطب الجنوبي برًّا ناتئًا فوق ثبج البحور

امَّا الجزائر التي اكتشفها الرحَّالون فاعظمها شأنًا ما كان موقعهُ في جهة الاوقيانوس الهندي كبرّ ڤيكتوريا على مسافة ٧٥° من القطب ثمَّ برّ ويلكس (Wilkes) وجزيرة كمپ (Kemp) واراضي اندربي (Enderby) وسبرينا (Sabrina). وممَّا اكتُشف في الاوقيانوس الاتلنتيكي برًّا غراهام (Graham) واسكندر الاول جنوبيَّ رأس هورن. امَّا البحر الباسيفيكي فلم يُكتشف فيهِ حتى الآن سوى جزيرة بطرس الاكبر

واعلم ان المصاعب التي تحول دون البلوغ الى القطب الجنوبي لعظيمة جدًّا لان المسافة التي يُقتضى قطعها بحرًا نازحة فلا بُدَّ للمسافرين الى القطب من مؤنة كثيرة اذ ليس لهم ما يصطادونهُ من الوحوش كما يفعل المسافرون الى القطب الشمالي

وكذلك يصادف الرحَّالون الى الشمال ليس بعيدًا عن القطب اراضي مأهولة يسكنها قبائل من الاسكيمو (Esquimaux) يساعدون المسافرين في حاجاتهم بخلاف القطب الجنوبي فانَّ الذين يقصدونهُ لا نصير لهم ولا مغيث. وعلاوةً على ذلك ان قِطَع الجليد التي تتراكم في البحار الجنوبيَّة اعظم كبرًا وأثخن غلظًا من البحار الشماليَّة

فيمكن خوض هذه دون تلك الى مسافة قريبة من القطب. لان هذه القطع المتجمّدة تبلغ الى الدرجة ٦٠ من القطب الجنوبي فهيهات ان تمخر السفينة العباب الى الدرجة ٨٢ كما فعل الدوق دي ابروزي في الشمال (راجع المشرق ص ٥١٩)

واول من يمّم القطب الجنوبي رحّالة انكليزيّ اسمهُ « ديك تشريت » (Dick Tcherrit) فبارح الرأس هورن فبلغ الى ما وراء شتلند الجديدة. ثمَّ مرَّ نحو مئتي سنة دون ان يتجاوز احد الدائرة القطبيَّة حتى باشر في اواخر القرن الثامن عشر الرحّالة كوك (Cook) ثلاثة اسفار فتوغّل في البحار الجنوبيَّة دون ان يجد شيئًا جديرًا بالذكر. وفي عصرنا المنصرم تعدَّدت الرّحَل الى قطب الجنوب فاكتشف بلّنغهوزن (Bellinghausen) برّي اسكندر الاول وبطرس الاول سنة ١٨٢١. واكتشف بيسكوي (Biscoé) بعدهُ بعشر سنوات برّي غراهام وإندربي. ومن السنة ١٨٣٩ الى ١٨٤٢ رحل الى الجنوب الانكليزيُّ بالني (Balleny) والافرنسي دومون دورڤيل (Dumont d'Urville) والاميركي ويلكس فبشَّروا باكتشاف الجزائر الواقعة في جنوبي اوسترالية بينما كان جمس روسّ (J. Ross) مراقبًا لارض ڤيكتوريا وبراكينها العالية التي يبلغ علوّ احدها وهو الإربوس (Erebus) ٣,٣٠٠ متر والاخر واسمهُ ترّور (Terror) ٣,٧٠٠ متر

ثمَّ تأثَّر المحدثون آثار هؤلاء. فلم يجدوا شيئًا يُذكر حتى سنة ١٨٧٥ اذ الجر الالماني نومايِر (Neumayer) الى الجهات الجنوبيَّة لا لاكتشاف ارض جديدة بل حبًّا بالعلم لكن الموت عاجلهُ قبل ادراك الوطر. ألّا ان البلجكيّ دي جرلاش (de Gerlache) قام بعدهُ بهذا المشروع وخلد لهُ اسمًا طيّبًا. وكان المذكور اقتنى لهذه الغاية سفينة نروجيَّة صغيرة الحجم كان يركبها بعض الصيّادين لاصطياد الحيتان فجهَّزها تجهيزًا موافقًا لمقصودهِ وصفَّحها بصفائح الحديد وضاعف خشب قعرها وجعل لها رفّاسًا (hélice) قابلًا للارتفاع فوق المياه وكانت قوَّة اداة بخارها ١٦٠ فرسًا واتخذ مؤنةً لسنتين ودعا سفينتهُ هذه « بلجيكا » وكان اسمها السابق « باتريا » ليعرب عن شكرهِ لمواطنيهِ الذين عضدوهُ في مسعاه واختار لهُ رجالًا ذوي خبرة وإقدام يساعدونهُ في عملهِ كالبلجكي لوكوينت (Lecointe) لادارة السفينة والآلاتي دَنكو (Danco) والطبيعي راكوڤيتزا (Rakovitza) والطبيب كوك والعالمين ارستوفسكي (Arçtowski) ودوبروڤولسكي

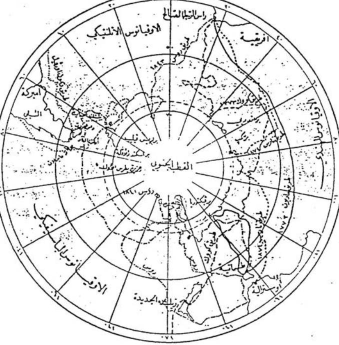
(Dobrowolski) فضلاً عن ١٢ من البحارة

وكان سفر السفينة « بلجيكا » في ١٨ آب ١٨٩٧ وخرجت من مرسى انترس فوصلت في ٢٩ ت ٢ الى رأس العذارى في مدخل بوغاز ماجلان فعبرتهُ ثمَّ دخلت في ١٤ ك ٢ في البحار المجهولة بعد خروجها من جزيرة ستلند. فما مرَّ عليها تسعة أيام حتى بلغت برّ بَلمر فتمكّن المسافرون من تفقّد آثارها المجهولة. ثمَّ واصلت مسيرها فادركت خليج هوغس (G. Hughes) ونفذت حتى بلغت بوغازاً كبيراً لم يُعرف الى ذلك العهد فدُعي « بوغاز بلجيكا » وهو يفصل ارخبيلاً ذا خمس جزائر كبيرة مع جزائر أُخرى عديدة صغيرة عن ارض متسعة لاحقة شمالاً ببرّ غراهام. فدعوا الارخبيل باسم بلمر والارض الموازية لهُ في جنوبي شرقي بوغاز بلجيكا « برّ دنكو » لانَّ دنكو الآلاتيّ مات حتف انفه في مدة رسوّ السفينة في فصل الشتاء بين الجليد المحدق بها

وفي ١٢ شباط سنة ١٨٩٨ ولجت السفينة غمر الباسيفيكي وتفقّدت جزائر بيسكوي الى برّ اسكندر الاول. ثمَّ حاول المسافرون ثلاثاً ان يعبروا في وسط الجليد المتجمّد امامهم فلم ينجحوا حتى ثارت الانواء من الجهة الشماليَّة الشرقيَّة وفتحت لهم طريقاً نهجوهُ فوصلوا الى الدرجة ٧١° والدقيقة ٣١´ من العرض الجنوبي. ولمَّا اراد اصحابها ان يسيروا الى الامام وجدوا السفينة محدقة بقطع الجليد العظمى التي اكتنفتها وحبستها مدّة ١٥ شهراً متتابعاً

وممَّا كان يزيد السفينة خطراً انَّ جليدها المتجمّد حولها لم يكن ثابتاً بل طافياً فوق وجه المياه تتناقلهُ الرياح وتعرّض اصحاب السفينة للهلاك برداً او جوعاً وكانوا يودُّون لو نفذوا وسط الجليد الغير الثابت وادركوا السواحل الجامدة الثابتة. الَّا انهم لم يسعهم سوى الصبر على البلاء وساروا طوع الريح تارةً ذات اليمين وتارة ذات الشمال وكانوا هلكوا لا محالة لولا ان الريح بعد ان حملت بهم الى الشمال تغيَّر مهبُّها فسارت الى الغرب حيث امكن السفينة ان تنجو اخيراً من الدمار

وفي مدَّة هذا الحصار الهائل لم يكفَّ اهل البعثة عن الشغل والأرصاد العلميَّة. واوَّل ما لحظوا انَّ جَمَدَهم المحيط بهم ما كان يسير الَّا بقوة الريح دون المجاري المائيَّة السفلى التي تجري في بطن البحار فاستدلُّوا من ذلك على انَّ قرار الارض قريب لانهُ لو كانت المياه بعيدة الغور لحدثت هذه المجاري كما تحدث في القطب الشمالي. فتأكَّدوا



خارطة القطب الجنوبي



خارطة
برلوبس فيليب

قول الاستاذ غرين انَّ القطب الجنوبي برٌّ لا بحرٌ. ثمَّ لو وُجدت هذه المجاري المائية السفلى لاذابت بحرارتها الجليد كما هو الواقع في القطب الشمالي

ومن ملحوظات هذه البعثة انَّ الجليد في جهات القطب الجنوبيّ لا يكون فقط رصيفًا متساويًا (banquise) مسبَّبًا عن تجمُّد مياه البحر في سمك مترين او ثلاثة وهذا الامر يشترك فيه كلا القطبين. ولكن يكون ايضًا على هيئة قطع كبرى (iceberg) كانها الصخور العالية بل الجبال الشاهقة تتقطَّع من سواحل البرّ القطبيّ فتعوص في المياه ومنها ما يبلغ علوُّهُ فوق سواء البحر نحو ٤٠ مترًا وتحتهُ نحو ١٠٠ متر. وهذه الجبال المتجمدة لا تتكسَّر كما يتكسَّر الرصيف الجليدي وانما تتحاملهُ الريح فاذا صدم شيئًا في طريقهِ حطَّمهُ تحطيمًا

وقد ثبت لاصحاب الرحلة الى القطب الجنوبي ان هذه القطع لم تتركَّب من البحر بفعل البرد على سطح المياه بل تكوَّنت في شواطئ البرّ وتيقَّنوا الامر بفحص هذه قطع الجليد فرأوها تتركَّب من طبقات متوالية متلاصقة كالبناء المرصوص فعرفوا انها مجاليد ارضيَّة (glaciers) تراكمَ عليها الجليد فزاد ثقلها فسقطت من علٍ وتدهدت الى البحر حيث تلاعبت بها الرياح. ومياه البحر بحرارتها الغريزيَّة لا يمكنها ان تعمل في هذه القطع المتجلّدة عملها في مياه البحر الجامدة فلا تُذيب منها الَّا شيئًا قليلًا لعظم حجمها امَّا السطح البحري المتجمد فان المياه السفلى لا تزال ترقق قشرتهُ بحرارتها الى ان يتخدَّد وينكسر وفي تكسُّرهِ خطرٌ عظيم الَّا انهُ دون الخطر الناجم عن الصبار الجليديَّة التي لا تلقى في طريقها عائقًا الَّا وتنذرهُ بالويلات. وهذا الفرق بين الجليد البحري وهذه المقطَّعات المتجمّدة كان داعيًا جديدًا للمصادقة على قول العلامة غرين بانَّ القطب الجنوبي برٌّ لا بحر. امَّا القطب الشمالي فان في بحاره شيئًا قليلًا من هذه القطع الجليدية وكلُّ ما وُجد فيه من ذلك يأتيه من سواحل البلاد المجاورة

وبينما كانت السفينة بلجيكا اسيرة الجلد احبَّ الربَّان الشاني لوكوينت ان يخرج منها فيسيح ماشيًا ما امكنهُ ويرصد ما يجدهُ في طريقهِ فرافقهُ في هذه السياحة الطبيب كوك مع احد البحَّارة واخذوا معهم طعامًا كافيًا لثمانية ايام. فساروا على سطح الجليد يومين دون ان يعرض لهم عارض. ولمَّا كانوا اليوم الثالث احسُّوا بغتة بالجليد قد تشقَّق في اماكن عديدة وكانت اخاديدهُ واسعة حتى انهم لم يستطيعوا ان يعبروا من قطعة الى

اخرى ولم يبقَ لهم املٌ في العودة الى رفاقهم وثارت بهم زوبعة شديدة وتكاثف الضباب فاتخذوا لهم قترًا من الثلج ليتستروا بها . فبقوا على هذه الصورة اربعة ايام بين احياء وأموات لا دليل لهم سوى الابرة المغناطيسيَّة وكانوا تلفوا لولا ان الله رحمهم وفتح لهم بابًا للنجاة وادركوا سفينتهم بعد شقّ النفس

ومَّا عنوا بشغلهِ في مدَّة إسرهم ارصاد الظواهر الجويَّة التي كانوا يدوّنونها بغاية التدقيق . ألّا انهم بعد ايام قليلة ادركهم الليل القطبي الذي دام اربعة اشهر بنيف من تاريخ ١٧ نيسان الى ٢١ تموز (ولو كانوا بلغوا القطب في مركزهِ لدام ليلهم ستَّة اشهر) فاحدقت بهم الظلمات طول هذه المدَّة حتى سئمت نفسهم . وكان يزيد البرد قوسًا حتى بلغ الدرجة ٤٣ تحت الصفر من مقياس السنيتغراد فاثّر فيهم تأثيرًا سيئًا . وكان اشتداد البرد يضرب في دماغهم فيصيبهم بعض الاحيان شبه الجنون فكانوا يتشاتمون دون سبب ويهدّد بعضهم بعضًا . وبُلي الآلاتيُّ دَنكو بحمَّى خبيثة ذهبت بحياتهِ في ٥ حزيران ١٨٩٨ فكان لهذه الفاجعة اسوأ وقع في قلوب رفقتهِ لكنهم لم يستسلموا الى اليأس وصبروا حتى انقشعت عنهم ظلمات الليل في اواخر تموز

بيد انَّ وطأة البرد لم تخفَّ عنهم مع ذلك بل زاد الجليد كثافةً حول سفينتهم في آب. ثم هبط الميزان الى ١٨ درجة تحت الصفر في شهري تشرين ولم يبتدئ ذوبان الجليد ألّا في كانون الاول غير انهُ كان بطيئًا جدًّا حتى تحقّق لديهم ان لا امل لهم في النجاة ما لم يفتحوا لهم طريقًا في الجمد ليخلّصوا السفينة من خناقها فاختاروا حيث كان الجليد ارقّ فوجدوا محلًّا سمكهُ متر ونصف الى مترين فاخذوا ينشرون في وسطهِ قناةً صناعيَّة طولها ٧٠٠ متر في عرض ٣٠ لتعبر فيها السفينة فدام شغلهم شهرًا تامًّا وكلهم يشتغلون ثماني ساعات في النهار . فلمَّا نجز العمل هبطت السفينة في المياه وكادت تتحطَّم لما كبس عليها من الضغط . وفي آخر الامر خاضت المياه ونجت من حصارها في ١٤ شباط ١٨٩٩ ورجعت القهقرى ثمَّ مخرت البحار بين مخاطر لا توصف حتى بلغت مضيق ماجلاّن فارسل المسيو دي جرلاش بلسان البرق تلغرافًا ينبئ الجمعيَّة الجغرافيَّة في بروكسل بعودة سفينتهِ سالمةً فتلقَّى العلماء هذا الخبر بفرح عظيم .

وان طلب القارئ وما هي الفوائد التي نالوها من هذه البعثة اجبنا انَّ السفينة بلجيكا لم تكتشف ألّا قليلًا من البلاد الجديدة بل لم تسرْ الى حيث بلغ جمس روس سنة

١٨٤٢ لكن نتائجها العلميَّة كثيرة منها الارصادُ الجويَّة والمغناطيسيَّة ومنها تعريف حركات الجليد الطافي فوق المياه بدفع الرياح ومنها ايضًا بيان خواصّ صبار الجليد التي مرَّ ذكرها وقد تحقق علماء البعثة انَّ بعض هذه القطع الجامدة قد انفصلت عن مجاليد يرتقي عهدها الى الوف من السنين وانَّ منها ما يأتي من جنوبي اميركا من البرّ المعروف بارض النار حيث وُجدت بقايا من اصناف الحجارة المصهورة تُشير الى براكين قديمة كانت في تلك الانحاء. وقد اخذ الدكتور راكوفيترا رسم هذه القطع وصورُها العجيبة تبهر العيون. ومن نتائج هذه البعثة ايضًا مجموع طيور غريبة الشكل نادرة الوجود اتت بها سفينة بلجيكا الى اوربَّة. وكذلك مجموع لنبات تلك النواحي السحيقة

وقد سبق ذكر البرد الشديد الذي يُشعَر بهِ في القطب الجنوبي وهو اشدّ من القطب الشمالي فان اعظم درجة بلغوها هناك من الحرارة ١ تحت الصفر. ومعدل درجة البرد في القطب الشمالي في عرض ٨٠° تبلغ فقط ٨ درجات تحت الصفر بينما هي تبلغ ٩ درجات في عرض ٧١° من القطب الجنوبي. وكذلك يحدث في الجنوب اعصارات عديدة غاية في الشدَّة وينزل الثلج كثيرًا ولا يكاد يصفو السماء. امَّا اذا صفا اديم الجوّ فتلوح للنظر ظواهر جويَّة تأخذ بالبصر كالشفق والدارات والهالات وانعكاس صورة الشمس في الهواء والسراب وغير ذلك من المظاهر النادرة

ومن الارصاد المهمَّة رصد الحركات المغناطيسيَّة والكهرباء والشفق القطبي وتأكَّد المسيو لوكوينت ان هذا الشفق لا يحدث الَّا عند حدوث انواء مغناطيسيَّة في الفلك. هذا الى غير ذلك من النتائج العاميَّة التي فاز بها ارباب هذه البعثة. وعمَّا قليل ستنشر الجمعيَّة الجغرافيَّة البلجيكيَّة كل هذه المباحث العلميَّة عن تلك الجهات المجهولة

ومن فوائد هذه البعثة انها حركت في قلوب كثيرين من العلماء الرغبة في معاينة تلك البلاد. واليوم نرى قومًا من اصحاب الهمَّة يُعنون في هذا الامر فان الالمان يعدُّون لذلك بعثة يتولَّاها الدكتور فون دريغالسكي (Drygalski) وغايتها انْ تدخل البلاد القطبيَّة من جهة الاوقيانوس الهندي فتسير الى جزيرة ترمينوس. وكذلك تسعى الجمعيَّة الجغرافيَّة الانكليزيَّة في تجهيز بعثة اخرى للتنقيب عن احوال ارض ڤكتوريا. وتُهيَّأ بعثة ثالثة يقوم بها وليم بروس (W. Bruce) من اهالي سكوسيا وِجهتُها الى ارض غراهام

فمنى هذه البعثات الثلاث تفوز كلها بالمرام وتزيدنا معرفةً بنواحي جمع فيها الخالق انواع العجائب لم يمكنّا حتى الان الانتفاع بها لنمجد اسمهُ ونعظّم قدرتهُ

(ذيل) وبينما نحن نكتب هذه الاسطر اذ بشَّرتنا المجلّات بعودة نروجيّ اسمهُ بورشكرينك من سياحة باشرها الى قطب الجنوب فبلغ الدرجة ٧٨ والدقيقة ٥٠ واستكشف ارض فيكتوريا وجزيرة مجهولة دعاها باسم دوك دي يُرك.وتشبه اكثر تفاصيل رحلتهِ رحلة العلّامة دي جرلاش وزاد تمّتنا بان نقطة القطب الجنوبي واقعة في قارة لا في بحر كالقطب الشمالي

موت جان دَرْك

معرَّب عن قصيدة عامرة الابيات للشاعر الفرنسيّ كازيمير ديلافين
بقلم جناب الشاعر الاديب شبلي افندي ملاط

١ لمن النارُ والمشاعل تُضرمْ والى اين زَحْف هذا العرمرمْ
ضجَّةٌ تملأُ الفضاء وبِحذمْ وحديدٌ والجندُ بالجندِ يُلطمْ
وكُماة على الصوافن تقحمْ

٢ ورنينُ الاجراس وهي مَوازْ أَلِفتحٍ تسيرُ تلك العساكرْ
أم لتدويخِ ثائراتِ العشائرْ ام لمجدٍ ام للعلى والمفاخرْ
ام لنصرِ اغرَّ في الحرب مُعلَمْ

٣ يا أبى الله لا فليس مجالٌ يتجارون نحوهُ او قتالٌ
بل الى مقتل ابنـةٍ هم عِجالٌ من بَريطانَ والسيوفُ صقالٌ
والاساريرُ منهمُ تتبسَّمْ

٤ ابنةٌ بل شهيدةٌ في القيودِ هاجمتها ابطالهم في الحديدِ
بارك الله فيهمِ من اسودِ وصناديدَ اهلِ بأْسٍ شديدِ
كيف كلٌّ على ابنةٍ يتهجَّمْ

٥ أبصروها وما لها من مجيبِ او نصيرٍ إن تَدْعُهُ في الخطوبِ
صرخوا كلُّهم بصوتٍ غضوبِ فلتَمُتْ فلتُحرقْ بذات اللهيبِ
فهي سحَّارة اتت من جهنمْ

٦ ما تقولون ايها الجبناء بِبلاكٍ قد ارسلتهُ السماء

ملكٌ يسحرهُ السنا والبهاءُ   والحيا والعفاف والاغضاءُ
وخلالٌ كأنها زهرُ انجمْ

٧ واقتحامُ الاهوال والروعُ يُصلى   وسرامُ الاعداءِ ضيمًا وذلّا
كم نهلتم من سيفها الموتَ نهلا   وتبدَّدتمُ من الخوفِ شللا
ولقيتمْ منها القضا وهو مُبرمْ

٨ قبّلت جانُ صورةَ المصلوبِ   باحترامٍ ومدمعٍ مصبوبِ
وتمشّت نحو العقاب الرهيبِ   بتأنٍّ تؤمُّ مهوى اللهيبِ
حيث نيرانُ حتفها تتضرّمْ

٩ جأشها رابطٌ بلى الزنجُ حلّا   فحمُ شعرٍ من فوق فجرٍ تدلّى
بيد ان القدور ساعةَ حلّا   رأسُ قهّارةِ البريطان ذلّا
فتبارت دموعها تتسجّمْ

١٠ يا فتاةَ الشمّا اطيلي بكاكِ   فلقد غالك الردى في صباكِ
واسألي اللهَ رحمةً في بلاكِ   وسماحًا لموطنٍ قد سلاكِ
نام اهلوكِ والعدى غير نوّمْ

١١ ودّعي ارض ڤوكولورَ الجميلهْ   فلكم فيها روضةٌ وخميلهْ
يا لياليَّ كم اراك طويلهْ   ودموعي من بعدها مطلولهْ
ومجنّي مهجةٌ تتألّمْ

١٢ لن ارى تلكمُ المروجَ الخصيبهْ   ومصلّايَ والحقول القشيبهْ
ومراعي نعاجيَ المحبوبهْ   حكم اللهُ ان اموتَ غريبهْ
وابي عمرهُ اسًى يتصرّمْ

١٣ ايها الجندُ ايها الفرسانُ   هل فتًى منكمُ لها معوانُ
ينبري من مكانه والسنانُ   دونها في يمينه حرّانُ
ويخوض الميدان خوضةَ ضيغمْ

١٤ لِمْ اراكمْ كأنكم اصنامُ   ايها القوم ايها الظلّامُ
فليطفئكِ يا سماءُ الغمامُ   وليطفئْ رذاذك السجّامُ
من اجيج النيران ما قد تحدّمْ

١٥ او قودي من الفرنسيس فارسْ مثلَ لمع البروق في جنح دامسْ
او هزيم الرعود تخشى الاشاوسْ بأسَهُ منقذًا بسيف الفوارسْ
ابنةً من شفا الردى تتقدَّمْ

١٦ ثمَّ ساد السكوت والنارُ شبَّتْ وتلظَّت ولعلعت واشرأَبَّتْ
ولديها روح الشجاعة دبَّتْ في عروق التي الى الموت هبَّتْ
هبَّةً دونها الصناديدُ تُحجمْ

١٧ فتوارتْ تحت الدخان الملبَّدْ انما زندها الذي قد توقَّدْ
نصفُهُ كان خارجًا يتهدَّدْ ظالميها القساةَ واللهُ يشهدْ
ايُّ ظلمٍ شقَّ القلوب وكلَّمْ

١٨ ايها الجيش لِمْ عراكَ ارتعادُ واضطرابٌ والزند منها رمادُ
لا حرابٌ ولا ظُبى وصعادُ باكفَ التي بكتها البلادُ
وعليها النواح اصبح مَغرمْ .

١٩ صهرتها النيران وهي تنادي يا مليكي يا موطني يا بلادي
يا فرنسا دومي فكل مرادي ان تدومي وان لقيتُ معادي
فمماتي إن تسلمي انتِ مَغنمْ

٢٠ فاقيمي لمجدها تمثالا يا فرنسا تحيا بهِ اجيالا
واذكريها الاسحار والآصالا واندبيها ما حبلُ عمركِ طالا
واذيعي فضلًا لها ليس يُكتمْ

٢١ واحفروا ما اتت من الاعمالِ فوق ضخم الاجراس للاجيالِ
والعدى في تقهقرٍ وانخذالِ وهي تهتزُّ هزَّةَ الرئبالِ
وعليها مخاوفُ الحربِ حُوَّمْ

٢٢ ارسلتها عناية الرحمانِ بحسامٍ يجلو دجى البهتانِ
فتعالوا يا نخبة الفتيانِ وكرامَ الابطال والشجعانِ
واجعلوا لابنةِ المعارك مأتمْ

٢٣ انعشوا غار لحدها بالدموعِ واستعيروا لهُ حياة الربيعِ
كي اذا مرَّ نازحٌ في رجوعِ او ذهابٍ بكى بقلبٍ وجيعِ

قبرٌ مَن ذكرُها الزمانُ مكرَّمْ

٢٤ واغرسوا فوق قبرها الورد رطبا وإذيعوا في الارض شرقًا وغربا
أنَّ من انقذت مليكًا وشعبا واستمانت فدى المواطن حبًّا
كافأوها من القبور بمُظلِمْ

التبادل ومنافعهُ

للكاتب الاديب جان افندي جلوان البغدادي

ان من المباحث التدبيريَّة التي يجدرُ بالانسان ان يستغرقها ويتقصَّاها ويُعطيها كلَّ حقّها من الاهميَّة التي تترتب عليها هو بلا مراء امر دوَران الثروة (١ لانهُ اذ كانت معيشة الانسان متوقفة على دأبهِ كما حتم عليهِ خالقهُ عزَّ وجلّ سواء كان بيدهِ ام بقوَّتهِ العاقلة واذ كان معظم سعادتهِ في هذه الدنيا بعد السعادة الحقيقيَّة التي يتمتَّع بها بمحبة خالقهِ والسير في الطرُق التي مهّدها لهُ منوطًا برغد العيش ورخائهِ وذلك لا يتحصَّل الَّا بالجد والكد في تزييد محصولات يدهِ وفكرهِ فكل ما يمسّ امر هذا الريع لهُ الشأن الاعظم والمقام الاسمى في عالم التنازع في البقاء.

ان الانسان بتقدُّمهِ في الحضارة والتمدُّن تمكَّنت عنده قاعدة تقسيم الاشغال (division du travail) فاصبحت كل حاجة من حوائجهِ خاصَّةً بفريق من الناس بل قُل وكلّ جزء داخل في تركيب الشيء المطلوب موضوعَ شغل قائم بذاتهِ. وكلما عمَّ تقسيم الاشغال وتكامل كثرت المبادلات. فالتبادل اذًا هو مُندفَق (débouché) للثروة نستقصي البحث عنهُ بهذه المقالة ونردفهُ تباعًا ان شاء الله في فُرص اخر بالفصول التوالي

ومتى قوبلت المحصولات بعضها ببعض وتُبودلت تولَّدت في العقول قيمها واسعارها وهو الفصل الثاني من دوران الثروة. ثمَّ تسهيلًا للمبادلات ولعدم ضياع الوقت في اجرائها

١) تعريب (circulation de la richesse). والثروة بلسان التدبير السياسي تُطلق على معنى واسع فكلُّ نتاجٍ او شغل او خدمة تقوم بحاجات الانسان المادّية والغير المادية تُدعى ثروة

اخترعت النقود او ما يقوم مقامها وهو الفصل الثالث. ولتفاوت درجات الانسان بالغنى والعقل والذوق وكثيرًا ما يُعير احدهم باجرة معلومة ما لا يقدر ان ينتفع به هو بذاته ممّا ادّخره من مال ورأس مال الى آخر اقدر منهُ او في حالة تمكّنهُ من ان يظفر منهُ بطائل وهذا الفصل الرابع وهو الاعتبار والبنك او محلات السمعة المالية. واخيرًا اذ كان الانسان غير معصوم عن الخطإ فقد حصل ايضًا خلافٌ بمبادئه في ادراك حقيقة التبادل فنهم من قال باطلاق عنان الحرّيَّة للمبادلات واقام منفعة الانسان حكمًا في قضاء الحق وجعل المغايرة والمراقبة قاضيًا لإقامة القسطاس ومنهم من راعهم جموح فرس الحرّيَّة في المقايضة ورأى فيها كل الشرور والاخطار فرجّح كبحها وجذب عنانها. فيُدعى الرأي الاول حرّيَّة المبادلات (libre échange) والثاني الحماية (protectionnisme) وهو الفصل الخامس والاخير

١ في حقيقة التبادل ومنافعه

ان الانسان امّا ان يُوجد الثروة مباشرةً بلا واسطة وإمّا ان يحصل عليها بواسطة التبادل وهو ان يُعطي شيئًا ويأخذ عوضهُ شيئًا آخر متساويين بنظره في القيمة. فالتبادل اذًا وهو غريزي هو الواسطة العموميَّة للحصول على ما يحتاج اليه الانسان وقد اضحى لازمًا لازبًا في اصول الهيئة الاجتماعيَّة ومن دونه ما كنتَ ترى فيها روحًا ولا حركةً. وقد احسن التدبيريّون الاغلاليون (١ حيث قالوا « انَّ الملكة هي اساس الجماعة والتبادل رباطها ». وليصحّ التبادل لا بدَّ من ان تكمل فيه هذه الشروط الثلاثة: ١ً تملُّك الشيء. ٢ً امكانيَّة تسليمه. ٣ً تنوُّعهُ. اذ لا يتمّ عقد المقايضة بشيئين الّا بوجود حقّ التصرُّف بهما بامكان تداولهما من يدٍ الى يد. امّا اذا كان الشيئان متجانسين غير متنوّعين فلا فائدة ولا جدوى بالمقايضة بهما

ومن عجيب امر التبادل ان كلًّا من الطرفين يرى به فائدةً وهو لا شكَّ من احكام الله ليصل الانسان بينهُ وبين قريبهِ بروابط الاستفادة ويُقرّب بينهما لكي يكمل ما اوصانا به من وجوب حبّ بعضنا لبعض. فان الرجل ينال بالمبادلة محصولات او

١) مصدر اغلّت الارض اذا اعطت غلّتها وهو تعريب (physiocrates). فرقةٌ من التدبيريين كانوا يزعمون بان غلة الارض هي الثروة الوحيدة

خدماً كانت تكلفهُ عرق القربة لو عملها بيدهِ. ألم أقل انهُ كان يستحيل عليهِ اقتناؤُها. ولولاهُ لكنَّا من اشقى الخلق عيشةً محرومين من كلّ ما توصلنا اليهِ اليوم من الرفاهيةِ والرغد في العيش والتأنق في الملبس ولبقينا مشابهين الانسان الاول في طُرق معاشهِ وانواع لباسهِ

ولا ريب انهُ بتمكين الامنيَّة والعدالة وتمهيد طرق المواصلات كثرت المبادلات وتوفَّرت المصنوعات وعمَّت فوائدها الجميعَّة حتى اصبح الفردُ يستفيد بالمبادلة اضعاف اضعاف ما يؤديهِ من الخدَم لامثالهِ. ويلذُّ لي ان اسرد هنا فقرة من تآليف التدبيري المتفنن فريدريك باستيا ابدع بها في وصف منافع التبادل. قال:

« لنفرضنَّ رجلًا من الطبقة المتوسطة نجارًا مثلًا ولنفحصنَّ سائر الخدمات التي يقدمها للجماعة والخدمات التي ينالها منها. فما يحتّم ان يأخذ منّا العجب كلّ مأخذ لما يتّضح لنا التفاوت الجسيم بين هذه وتلك. فالنجّار يقضي نهاره بنحت الالواح وبعمل المناضد والخزائن وهو لا يبرح يتشكّى من حالتهِ. بيد انهُ قد ذهل عمَّا اقتنى من الخدَم عوض شقائهِ. فكل صباحٍ عند نهوضهِ من مرقدهِ يتردّى ثيابهُ ولا ريب في انهُ لم يعمل بيده ولا قطعة واحدة من لباسهِ. تُرى كم اقتضى من مشاقّ الشغل والصناعة والنقل والاختراعات المتقنة التي دونها خرطُ القتاد لاحضار هذه الثياب مهما كانت بسيطة فلا جرم انها قد اتى الاميركيون بالقطن والهنود بالنيل والفرنساويون بالصوف والكتّان والبرازيليون بالجلود فنُقلت هذه المواد الى بلاد مختلفة وشُغلت وغُزلت ونُسجت وصُبغت. ثم يُسلّف (من اكل السُلفة اي الطعام قبل الغذاء) فالخبز الذي يأكلهُ لم ينلهُ كلّ صباح حتى عُزقت لهُ الارض وسُيّجت وحُرثت وسُمّدت وزُرعت وحرست الغلّات عن السرقة ووجب تمكين الامن والاطمئنان بين جمهور لا يحصرهُ عدّ. ثم حُصدت الحنطة وعُجنت وعُمل من الحديد والفولاذ والخشب والحجارة ادوات للشغل وسخَّر بعضهم الحيوانات وبعضهم استعمل قوّة الماء. وكلّ هذه الاشياء اذا اعتبرناها واحدًا فواحدًا لا يسعنا ان نتصوَّر مقدار ما استدعتهُ من الشغل والوقت لوضعها في حيز الوجود. ولا بدَّ من ان هذا النجّار يستعمل في نهارهِ شيئًا من السكّر والزيت وبعض ادوات المطبخ — يبعث ابنهُ الى مدرسةٍ ليتلقى فيها الادب. ومهما كان تهذيبهُ محدودًا فلا يخلو مَن تصدَّى لتخريجهِ من ان يكون قد داوم الدرس والمطالعات ونال حظًّا من العلوم باتعابٍ اذا استحضرناها امام بصيرتنا يأخذنا الانذهال. واذا خرج من بيتهِ يرى الطُرق مبلَّطة مرصوفةً ومُنارة. واذا اعترض احدٌ على ملكهِ فندهُ وكلاء الدعاوي للمدافعة عن حقوقهِ وحكام لاجراء القسط — واذا ذهب الكنيسة وهي من افخر الابنية يأخذ بيده كتابًا من ابدع ما اتت بهِ القريحة البشريَّة. فهناك بسماعهِ التراتيل والوعظ يستنيرُ عقلًا وتتسامى نفسهُ. غير ان من يرشدهُ الى هذا الكمال اقتضى ان يصرف اوقاتًا ثمينة في المكاتب ليقتني منها ما تركتهُ تقاليد البشر وان يفني جدهُ ليتفرَّغ لحل هذه المهامّ — واذا عزم على السفرة يرى ان كثيرين قد مهَّدوا لهُ الطريق وخرقوا الجبال واوصلوا الانهار وعمَّروا العربات وسكك الحديد وسخروا قوَّة الخيل والبخار — فاذا تأمَّلنا هنيهةً في كلّ ما يتمتَّع بهِ هذا النجّار وفي

ما كان يحصل عليهِ لو تُرك وحدهُ للقيام بعمل حوائجهِ اتّضح لدينا الفرق بكلّ جلائهِ. ولا احاشى من ان اقول انهُ يستهلك في اليوم الواحد ما لا كان يقدر ان يأتي بهِ بنفسهِ في عشرة قرون وما يزيد المشهد غرابةً ان جميع الناس على مثل هذه الحالة فكل فرد يستهلك آلاف آلاف ما كان يقدر على ايجادهِ. ومع ذلك فلم يسرق بعضهم بعضاً – على ان من فحص الامور وتدبرها مليًّا يرى ان نجّارنا قد دفع بخدمتهِ قيمة كلّ الخدم التي نالها واذا ضبط حسابهُ بالتدقيق يتحقّق لهُ انهُ لم يقتنِ شيئاً من دون ان يقابلهُ بحرفتهِ البسيطة – فلى ذلك يقتضي ان يكون النظام البشري عجيباً قديرًا حتّى ان كلًّا من اعضائهِ مهما كان في منزلةٍ واطئة ينال ما لا كانت تصل اليهِ يدهُ في قرونٍ من الزمان » اه

٢ وسيلة التبادل والنقود

قد سبق الكلام في تعريف التبادل وازيد على ذلك ان التبادل قد يكون عن حاصلات (produits) وعن شغل (travail) وعن خِدَم (services) فكما يُتبادل بغلّات الارض كذلك يُتبادل بشغل اليد ونتاج العقل. واليوم بوصول التمدن الى اوج الكمال قلّما ترى هذه الاشياء تتبادل بعضها رأساً من دون ان تدخل فيما بينهما النقود. غير ان ابدال الحاصلات بالنقود والنقود بالحاصلات لحياده عن جادّته الاعتياديَّة قد اخذ اسم البيع والشراء. على انَّ من تبصَّر في الامور رأى ان النقود ليست الّا بضاعة متوسّطة بين غيرها تُقبل موقّتًا للحصول على اشياء أخر متى ما مسَّت اليها الحاجة. فوكيل الدعاوي يبيع خدمتهُ ويشتري بها ذهباً ثم يبيع الذهب ليشتري بهِ حذاء عند الخرّاز وهذا يبيع احذيتهُ ويشتري بها ذهباً ثم يبيع ذهبهُ ويشتري بهِ قمحًا عند الفلّاح وهذا يبيع برّهُ ويشتري بهِ ذهباً ثمَّ يبيع ذهبهُ ويشتري ثوبًا ومن كلّ ذلك يتحصل ان وكيل الدعاوي قد اشترى احذيةً بخدمتهِ والاسكاف قد ابتاع قمحًا باحذيتهِ والفلاح شرى ثوبًا بقمحهِ وهكذا لم يبقَ اثر للنقود بعد ادائها وظيفتها من وسيلة التبادل. فلو حللنا التبادل على هذا النمط وتدبّرنا كيفيَّة جريان الامور اتضح لنا ان الفضة والذهب ليسا غاية التبادل بل ان من يقبضهما لا يلبث ان يستعملهما للمقايضة بغير اشياء تجديه نفعًا اللهمَّ إلّا يَسُقْهُ سائق البخل على ان يطمرها تحت الارض او ان يوصد عليها باب خزانتهِ وهذا من النادر في بلاد استتبَّ بها الامن. ولقد يصحّ ان يقال في بلدٍ قد فقد الامان ان النقود هي غاية التبادل لانها اسهل اخفاء من غيرها من البضائع

ومن تمعّن في الفحص عن قصد المتبادلين رأى في الواحد حاجةً تختلف عمّا في الثاني

تدفع كلاً منهما اذا كانا حرَّي الارادة للتعاطي باشياء متوازية في الثمن ومن هنا يتَّضح ان كلًّا منهما يرى فائدةً في المقايضة اذ اني اذا اعطيتُ عشرين غرشاً مقابلةً لحاجةٍ فلا شكَّ اني قد جزمت بان هذه الحاجة هي افيد لي من العشرين غرشاً وهكذا من اعطاني هذه الحاجة يفضّل علينا حفظ العشرين غرشاً . وهنا يسوغ لنا ان نستنتج بان الفضة والذهب اعني النقود ليسا مما النهاية القصوى من التعاطي كما زعموا . كانَّ من اشترى بضاعة (او باع نقودًا) يُضحي مغبونًا او تكون صفقتهُ اقلَّ ربحًا ممن باع البضاعة متوهمين ان الشاري يدفع ضربًا من الجزية للبائع . كل ذلك لعدم وقوفهم على ماهية النقود ووظيفتها وعلى هذا الاساس بُنيت اوهام اصحاب الميزان التجاري (١

فيتحصَّل اذًا ان كلًّا من المتبادلَين يتخلَّى عن شيء ذي قيمة للحصول على شيء آخر ذي قيمة ايضًا بعد الاتفاق على مساواتهما . فهكذا يكون التبادل بمعاضدة تقسيم الاشغال واسطة الرواج ومهماز العمل اذ ان المرء اذا اصدر شيئًا ولم يتسنَّ لهُ رواجهُ فلا يعود على صنعهِ مرَّةً اخرى وبالعكس فرواجهُ يدفعهُ على مواصلة العمل

على ان التبادل لم يُقصد منهُ مطلقًا الحصول على ما نحتاج اليهِ بل قد اتخذوهُ وسيلةً للمعاش وديدنًا للارباح وذلك بان تُقتنى الاشياء بابخس الاثمان بعد الجهد وشحذ القريحة وان تعرض للمبادلة وبهذا المهمّ قد امتاز السواد الاعظم ألا وهي التجارة التي قد اضحت اليوم بمقام محور يدور حولها العالم السياسي والعلمي . ولا غَبْنَ في هذه الارباح فهي باعتبار تأدية قيمة خدمات التجَّار بتقديمهم لنا ما نحتاج اليهِ وكفايتنا المشقَّة للحصول عليهِ بانفسنا

قد بيَّنتُ سابقًا كيف ان الحاصلات تُبدل بحاصلات مع دخول النقود كواسطةٍ فقط . واوَّل من وضع اساس هذا المبدأ هو التدبيري الفرنساوي الشهير ساي (Say) ومن هذا المبدأ يُستنتج بان الحاصلات تُتقايَض بالحاصلات فكلّ حاصل ماديًّا كان او ادبيًّا هو سبب رواج لغير حاصل . فاذًا كلما كثرت الحاصلات نفقت سوق كلّ حاصل وقامت . فالعالم هو بمقام سوق عظيم يشهر فيهِ كلّ عامل حاصلاتهِ المادّية والغير المادّية ليُتقايَض بها . ولا ريب انهُ كلما كانت السلع المعروضة على هذه السوق كثيرة يجد

---

١) (المشرق) : يلوح لنا ان جناب الكاتب لا يفرق بين قيمة النقود في ذاتها (valeur objective) وقيمتها في حسبان الشاري المضطرّ نصرفها في بعض الاحوال على رغمٍ منهُ (valeur subjective)

صاحب كل حاصل ان بضاعتهُ تسمو في منزلة الابتياع . وهذا امرٌ قرَّرتهُ التجارب ودعمهُ التدبيري المذكور بقولهِ ان الآن يُشترَى ويُباع في فرنسة اشياء هي عشرة او اثنا عشرة اضعاف ما كان يُباع ويُشترى قبل خمسمائة سنة . وما ذلك الّا لارتفاع منزلة ابتياع الحاصلات بالنسبة بعضها الى بعض لوفورها . وممّا يؤيد قول هذا العالم ان الضرر الذي يلحق بصنف يتطرَّق الى باقي الاصناف . فاذا تسبَّب توقيفٌ في اصدار الفحم الحجري في انكلترة فما تلبث ان تُوقف المعامل او تُبطئ حركتها . ونتيجة هذا الوقوف لا تُصيب فقط الالوف من العملة بل انهُ لعدم ربحهم واضطرارهم بالتقتير والاقتصاد الى ان يأتيهم فرجٌ من الله يقلّلون من ابتياعهم المألوف من ألبسة وطعام ويسببون بذلك خسارة لاصحاب الدكاكين والمخازن وباعة الاطعمة وهؤلاء يُسببون ضررًا الى غيرهم فينساب شرّ هذا التوقيف في كل الجماعة

واحسن ما يُقال عن المقايضة انها اذا أُجريت مع بلدٍ قد خوّلهُ الله منافع مجّانيّة كانت اكثر نفعًا . لانهُ اذا فحصنا ومحّصنا الامور وجدنا ان قيمة الاشياء هي عبارة عن مقدار شغل الانسان بها (بغضّ النظر عن ندور الشيء) لان كلّ منفعة طبيعيّة مجانيّة في الشيء لا تحتم ان تفقد قيمتها بقوّة المنايرة والمنافسة اللهمَّ إلّم تعرقل حركة الصناعة او تُدخل هذه المنافع تحت انحصار . مثال ذلك اننا لا ندفع قيمة نفع الهواء الذي نستنشقهُ مع انهُ قوام حياتنا لان اقتناءهُ لا يقتضي شغلًا ولا آلةً وكذا الماء الذي نشربهُ انّا لا ندفع قيمتهُ من حيث خاصيّتهِ لارواننا غير اننا نكافئ السقّاء او شركة الماء لخدمتها بجلبهِ لنا . . .

فعلى هذا الوجه كل بقعةٍ جادت عليها الطبيعة بحسن الهواء وجودة الاديم تسري منافعها بحكم التبادل ومع تمهيد الطُرُق وتسهيل المواصلات الى كافّة اقطار المعمورة . فانكلترة مثلًا تستخرج الفحم الحجري وتُرسل بهِ الى فرنسة ولا تستوفي الّا نفقات تعدينهِ . غير ان فرنسة تقابلها بالخدمة فتعطيها مجّانًا الخمر السلسبيل ولا تطالبها الّا بما انفقتهُ من المصاريف . وبلادنا الشرقيّة تُرسل بغلّاتها على هذا النمط وتجلب بها الملبوس بما تكلّفهُ فنّ الصناعة . وهكذا اذا أُعطيت حريّة المقايضات بين البلاد الى درجةٍ معلومةٍ تصبح قيمة الحاصلات المتبادلة لا تتعدّى مقدار مصاريفها العموميّة . ومن هذه المقابلات نستخلص ان المبادلات تكون أجدى نفعًا مع بلاد قد منّت عليها الطبيعة

بمُحَسَّناتها او كثرت فيها الاموال (capitaux) او امتاز اهلها بالحذاقة والمهارة. وللتوصل الى مثل هذه المبادلات المفيدة يحق هنا ان نُخلص الشكر للتجّار الذين بسعيهم وجهدهم ومداومة المخابرة مع سائر اقطار المسكونة بهمة لا يثبطها ملل تمكّنوا من ان يرتقوا الى المصدر الحقيقي لكل الاصناف حيث تُبتاع الاشياء بقيمة لا تتجاوز مصاريفها العمومية فيعرضونها علينا بابخس الاثمان

٣ مقام التبادل في المجتمع البشري

فاذ قد عرفنا ماهيّة التبادل والمنافع الجمّة التي تتولّد منهُ بانضمامه الى قاعدة تقسيم الاشغال فلا مندوحة لي من ان ابيّن المقام الذي احرزهُ بتشديد عرى المناسبات بين الامم (اذا لم يَقم في وجههِ عائق) وجعلهِ جميع قبائل الارض مرتبطة بولاء ووفاق. كما امر بهِ خالق الارض ورافع السموات الطباق

من الموافق لكل صناعة نجاح بقيّة الصناعات وذلك بديهيّ لا يحتاج الى حضر فكر. لانهُ اذا كانت الحاصلات تُبدل بحاصلات فالصناعة الاولى تروج محصولاتها برواج حاصلات الصناعة الثانية. فالحائك اذا نفقت منسوجاتهُ اكثر من شراء الغزل ومعاملُ الغزل اكثرت من ابتياع القطن وزادت عَملتها وهكذا يتّصل بنا الامر الى عدد لا يُحصى من الصناعات التي يكثر طلب حاصلاتها فتتشجّع وتنجح. فالصناعات اذًا هي متكافلة بعضها لبعض فالضرر الذي يصيب الواحدة يلحق بالاخرى. وبناء على هذا المبدإ فالحضر ينتفعون بنجاح البدو واصحاب الحرَف يشاطرون ربح المزارعين وكلّ مملكة من ممالك الارض وكلّ شعب يستفيد من ترقّي الممالك والشعوب لانهُ كلّما كان البلد غنيًّا عامرًا فاض من غناهُ على البلد الثاني. وبهذا الاعتبار يتحتّم على الفقراء ان ينظروا بعين قريرة الى ازدياد عدد العائلات الثريّة لانهُ كلما وفر عددهم ارتفعت اسعار ما يبتاعونهُ من العامّة والفقراء من حاصلات وخِدَم. ولا يختلف الامر في نفس الاغنياء فحبذا لو ترقّت الفقراء وافلحت فانهم بتقدّمهم في الاشغال وبراعتهم فيها يتمكّنون من تأدية خدم ذات شأن للمتموّلين فضلًا عن انهم في يسارهم يستهلكون مقدارًا اكثر ممّا يقدّمهُ لهم اصحاب الغنى من فاخر اللباس وغيره

فاذ كانت الجمعيّة البشريّة قائمة على تبادل الحاصلات والخدم والاشغال فكل

طبقة من الناس اضحت بالضرورة مفتقرة الى غيرها بحيث ان النفع الذي يصيب القسم الواحد يتطرَّق الى الثاني وما يحيق بالاول من ضرر يسري الى التالي. واذ قد تقرَّر اساس هذا النظام العجيب فلا يسوءنا ان نرى صِنوَنا يواصل الكدَّ للبلوغ الى درجة اسمى في الدائرة التي اختطَّها لهُ ساعياً وراء نفعهِ الشخصي فان العناية الربانيَّة بحكمتها الغامضة قد شاءت ان يكون الخير العامّ مُحصَّل جدّ وعمل كلّ منّا في نفعهِ الذاتي

وبهذا الشأن يحسن بنا القول ان المبدأ المذكور قد طابق كل المطابقة روح الاخوَّة المسيحيَّة وجارى الحكمة والآداب في تعاليمها. وحبذا لو نُشرت هذه الحقائق على رؤوس الملإ لتزول دواعي التباغُض والتحاقُد الجاريين بين العباد والبلاد التي افضت الى كلّ نوع من الشرور

. على انهُ لا يسوغ الإنكار بان ضرر الواحد قد يكون في بعض الاحيان شذوذاً نفعاً للغير غير ان ذلك لا يصلح ان يكون قاعدة تُبنى عليها الحقيقة كما يُعتبر من قولهم « مصائب قومٍ عند قوم فوائد » وفيما سبق كفاية لتفنيد هذا الرأي. وبين هذا والمبدأ المضادّ منتهى التضادّ. فالاول يأتلف مع تعاليم الديانة والحكمة ومن شأنهِ ان يُلقي الصلح والسلم بين الشعوب ويبثّ روح التعزية والسلوان في القلوب. والثاني من خواصهِ ان يلقي في العقول بذر الفساد. ويُثير سعير الشرور وينفث الفتن في العباد

غير ان حقيقة هذا التعليم التدبيري لا تعرفها الَّا فرقة من الناس ويجهلها السواد الاعظم. واقوب شاهد على صدق مقالي هو تباغض الغني والفقير. وتحاقد الشعب الكبير والصغير. حتى قلَّ من لا يعتقد ان محبة الوطن متوقفة على كره القوم المجاور وتمنّي الشرّ لهُ

فقد تحتم اذاً على ذمَّة من فُوِّض اليهِ امر تثقيف العقول بثّ هذه الحقيقة التعليميَّة وترسيخها في الاذهان. وكفى بذلك ترغيباً للاستنارة بشمس علم التدبير السياسي. لنُكفى شرّ ضلال الضالين القاسي. وبالله رجائي ومنهُ التأسي

تسريح الابصار

في ما يحتوي لبنان من الآثار

للاب هنري لامنس اليسوعيّ (تابع لما سبق)

بلاد البترون

٢٦ قلعة الحصن

اذا ملتَ عن الساحل سائرًا من البترون لتتوغّل في لبنان من جهة دوما رأيتَ بعد قليل صخرة عالية مكشوفة للنظر كانها السارية المنحوتة نحتًا عموديًا وفوقها قلعةٌ قديمة الآثار تدعى قلعة الحصن موقعها بين دير الموارنة المعروف بدير مار يعقوب وقرية بشملي(١). ومن رقي فوق هذا المرقب تمتّع بمنظر غاية في البهجة والرونق فان العين تبصر غربًا البحر وسواحلهُ وترى شرقًا القرى الممتدة الى جهات ارز لبنان. امَّا جهتا الشمال والجنوب فلا حاجز يحول دون مرأى سهولها. وليس لهذا المقام مجاز آخر الَّا من جهة بشملي وهي الجهة التي عُني القدماء بتحصينها لتكون القلعة حريزةً منيعة لا يقوى على فتحها العدوّ من كل انحائها

امَّا القلعة فان بقاياها ليست من العظمة والبهاء على شيء بخلاف ما يظن المسافر اذا ابصرها عن بعد. فانَّ موادَّها واخربتها لا تختلف عن غيرها ولا تنبيء بما اعتادهُ الفينيقيون والرومان من الابنية الجبَّارية. وعندنا انَّ هذه الاطلال صرحٌ بُني في الاجيال المتوسّطة فوق جدرانٍ اقدم عهدًا بقي منها بعض آثارها

وممَّا يرى داخل هذا القصر آثار بيوت كان يسكنها السكَّن سابقًا. وفي اسفل القلعة نواويس عديدة ومدافن نُحتت في الصخر الاصمّ وجد فيها الاهلون نقودًا ومصكوكات نادرة

ومن غريب ما شاهدناهُ في اعلى هذه القلعة حجر كبير وسطهُ مثقوب وهو منفصل عن الصخر الذي تحتهُ وفيه جدول للماء لا تظهر وجهة جريه. وقد اعملتُ الفكر لأعرف ما الغاية من نَصب هذا الحجر فلم يثبت لي الامر

وان استطلعنا طلع التاريخ لنستدل على اخبار قلعة الحصن وجدناهُ ساكتًا لا يفيدنا

١) راجع مقالتنا المنونة «سياحة في بلاد البترون» المشرق ٣: ٨٧٦

عن احوالهِ قليلاً. لكن موقع هذا البناء يناسب ايّ مناسبة للاعمال الحربيَّة كيف لا وهو يطلّ على قسم من اخصب معاطف لبنان فلا يبعد ان القدماء اتخذوا هذا المقام للدفاع عن مواطنهم. ولعلهُ كان هنا قلعة قديمة ابتناها الفينيقيّون فاخربها بمبيوس القائد الروماني عند فتح بلاد الشام كما ذكر آنفاً

اما « بشعلي » التي هي بقرب قلعة الحصن فلا نزيد في وصفها شيئاً على ما كتبناهُ سابقاً في المشرق في مقالتنا المعنونة « سياحة في بلاد البترون » (٢ : ٨٧٠). وفي بشعلي رأس عمود على اربع جهاتهِ كتابة يونانيَّة خشنة ذهب اكثرها فلم يبقَ منها سوى بعض حروف لا يظهر لها معنى شافٍ (١). وانَّما وجودها هناك دليل على انَّ القرية سبقت عهد العرب. وقد جاء ذكر بشعلي في آثار الصليبيين وهم يدعونها « Betzaal » وكانت داخلة في حكم امير جبيل (٢

وممَّا رأينا في « ترتج » عند زاوية كنيستها صفيحة من الحجارة طولها متر ونصف وعرضها سبعون سنتيمترًا وهي داخلة في الحائط عليها صورة ناتئة تمثل حيواناً تهشَّم رأسهُ ولم يبقَ سوى ذنبهِ الذيَّال فلم نتثبَّتهُ ايَّ حيوان هو

٣٥ دوما

لا نرى داعياً لتكرار ما كتبناهُ سابقاً عن حسن موقع هذه البلدة وعظم شأنها حاليًّا (راجع المشرق ٢ : ٨٦٩)

امَّا عاديَّات دوما فهي نواويس ومدافن قديمة ثم كتابتان يونانيَّتان الواحدة منهما محفورة في الناووس الذي قرب عين القرية وهو اليوم حوض ماء يُستقى منهُ ففي وسطهِ دائرة كان فيها نقشٌ اخنى عليهِ الزمان. والكتابة الملقّة عليهِ كثيرة الغلط كانَّ النقَّاش الذي نحتها لم يدرك معناها ولم يُحسِن نقلها بل ترك منها الفاظاً فصار معناها مُغلقاً. فاذا تداركنا هذا الخلل واصلحنا ما يجب اصلاحهُ وجدنا انَّ تاريخ الكتابة سنة ٣١٧ للمسيح يُستفاد منها انَّ هناك دُفن كاستور وكان كاهناً وثنيًّا لإلهِ الطب اسكولاب وإلٰهة الصحَّة (Υγιεία). وفي آخر الكتابة تهديد لمن ينهكون حرمة هذا الدفن فان فعلوا وجب عليهم اداء ٢٠٠٠٠٠ دينار لبيت المال

١) ولعلَّ هذه الكتابة من الآثار التي لم يجدها رينان بعد ان بحث عنها في بشعلي كما اخبر بذلك في كتاب بعثهِ الى فينيقية (ص ٢٥٧)

٢) راجع المجلة الفلسطينية (ZDPV) الجزء العاشر ص ٢٥٦

فهذه الكتابة اليونانيَّة من احدث ما نعرف من آثار الوثنيَّة في لبنان. امَّا ما جاء فيها من الوعيد ضدَّ ناقضي حرمة القبور فمثلهُ كثير في الكتابات الضريحيَّة القديمة (١). وليس المبلغ المذكور في الكتابة هو من المبالغ الفاحشة لانَّ الدينار كان وقتئذٍ قليل الثمن.
وهذه الكتابة مهمَّة لتاريخ دوما القديم لانَّ منها يُستفاد انَّ هذه البلدة كانت اقامت هيكلًا معتبرًا لإلهي الصحَّة وانَّ سدنة الهيكل كانوا من الذوات كما يظهر ذلك من الناووس الذي دُفن فيه هذا الكاهن. وهو جميل حسن النقش. ولعمري قد اصاب الاقدمون لمَّا جعلوا هذه القرية مقامًا لمعبد الصحَّة لانَّ علوَّها نحو ١١٠٠ متر فوق سطح البحر وهواءها الطيِّب ومناظرها البهجة المطلَّة على سهول كفر حلدا الخصبة توافق الصحَّة وتنعش القوى

امَّا الكتابة الثانية فهي على حجر داخل في جدار كنيسة الروم الاورثذكس (المشرق ٢ : ٨٧٠) وقد اخذت رسمها بعد افراغ الجهد الجهيد الَّا ان هذه الكتابة مطموسة لا يُفهم منها سوى كونها ضريحًا لعدَّة اشخاص ذهبت اسماؤهم الَّا واحدًا منهم. وقد درس ايضًا تاريخ الكتابة فلم يَعُدْ لها شأن كبير

ومن قرى بلاد البترون التي تشتمل على بعض الآثار قرية «بِقِسمَيَّة». فانَّا نقدِّر انها كانت مزدانة بهيكل وثني في سالف الاعصار والكنيسة الحاليَّة مبنيَّة بموادّ ذلك البناء. فترى حجارتها كبيرة حسنة النحت. وابواب الكنيسة اكثرها من ذلك المعبد القديم لها العتبات المنقوشة وجوانبها قطعة واحد. وان دخلت الكنيسة وجدتَ آثارًا غير السابقة كالنقوش المحطَّمة المعترضة في وسط البناء. ولو بحث الاهلون او نزعوا هذه البقايا لوجدوا بلا شك كتابات قديمة ترشدنا الى تاريخ القرية بيد اننا حتى الان لم نسمع بذكر شيء. من ذلك اللهمَّ الَّا عتبة معبد السيدة الملاصق للكنيسة فانها تُبرز للعيان بقايا كتابة لم يمكنَّا قراءتها

وبقسمية من القرى التي احتلها الروم الملكيون زمنًا طويلًا كما سنبيِّن ذلك في مقالتنا الآتية عن دير مار يوحنَّا مارون. والروم لم يسكنوا فقط جهات الكورة حيث كان عددهم وافرًا بل احتلوا ايضًا قسمًا من بلاد البترون التي تُعدُّ كمهد الأمَّة المارونيَّة. ولنا في كلّ ذلك تفاصيل نعرضها ان شاء الله عند سنوح الفرصة (ستأتي البقيَّة)

(١) راجع Reinach : *Manuel d'épigraphie grecque*, p. 429

رسالة ابي نصر الفارابي في السياسة

تولّى نشرها الاب لويس شيخو اليسوعي

أشرنا في المشرق (٢ : ٢٨) الى مجموعة قديمة حسنة تحتوي على عدّة رسائل فلسفيّة وادبيّة نصوصها في مكتبتنا الشرقيّة ونقلنا عنها كتاب مكارم الاخلاق للامام ابي منصور الثعالبي. ومن جملة ما يتضمَّنهُ المجموع المذكور رسالة لابي نصر الفارابي في السياسة لا ينيف عدد صفحاتها على ١٣ صفحة. وهي من ابدع ما جاء في باب الحكم والآداب آثرنا نقلها لمنفعة القراء. وقد وجدنا من هذه الرسالة نسخة ثانية في المكتبة الواتيكانيّة فقابلنا بينها لضبط الاصل وتدوين الرواية الصحيحة. ولا حاجة ان نصف هنا مقام ابي نصر الفارابي صاحب هذه الرسالة فانَّهُ قد جارى في العلوم اعظم فلاسفة العرب كابن سينا وابن رشد ولعلَّهُ فاق عليهما باشياء كثيرة. ومن اراد الوقوف على فضل هذا الرجل العظيم الذي شرّف العلوم بتآليفه الفلسفيّة والطبيّة والفنيّة (لاسيما الموسيقى) فليراجع كتاب طبقات الاطباء لابن ابي اصيبعة (٢ : ١٣٤ — ١٤٠) كانت وفاة الفارابي في دمشق سنة ٣٣٩ (٩٥١م). وكتبهُ نادرة اخذت كثيرًا منها ايدي الضياع. وهذه الرسالة في السياسة لم نجد لها ذكرًا في قائمة كتب الفارابي وهي مختلفة عن رسالة اخرى لهُ وسمها بالسياسة المدنية يوجد منها نسخٌ عديدة في المكاتب الاوربيّة

بسم الله الرحمن الرحيم

(44v) وما توفيقي الّا بالله

قَصَدنا في هذا القول ذكرَ قوانين سياسيَّة يعمُّ نفعها جميع من استعملها من طبقات الناس في متصرَّفاتهِ مع كلّ طائفة من اهل طبقتهِ ومَن فوقهُ ومن دونهُ على سبيل الايجاز والاختصار. على انَّهُ لا يخلو قولنا هذا من ذكرِ ما تختصُّ باستعمالهِ طائفة دون طائفة وواحدٍ دون واحد منهم في وقتٍ دون وقت ومع قوم دون قوم اذ الواحد من الناس لا يمكنهُ ان يستعمل في كلّ وقت مع كلّ احد كل ضرب من ضروب السياسات. ونقدّم لذلك مقدَّمات منها ان نقول (١ :

١) هذه الفاتحة ليست في النسخة الواتيكانيّة. وانما جاء فيها فقط ما نصُّهُ: كلام ابي نصر الفارابي في وصايا يعمّ نفعها جميع من استعملها من طبقات الناس قال . . .

انّ كل واحد من النــاس متى ما رجع الى نفسهِ وتأمل احوالها وأحوال غيره من ابناء الناس وجد نفسهُ في رتبة يشركهُ فيها طائفةٌ منهم ووجد فوق رتبتهِ طائفةً منهم أعلى منزلةً منهُ بجهة او جهات ووجد دونها طائفةً هم اوضع منهُ بجهةٍ او جهات. لانّ الملك الاعظم وان وجد نفسهُ في محلّ لا يرى لاحد من (45ᵗ) النــاس في زمانهِ منزلةً اعلى من منزلتهِ. فانهُ متى تأمل حالهُ نعماً وجد فيهم من يفضل عليهِ بنوع من الفضيلة اذ ليس في اجزاء العالم ما هو كامل من جميع الجهات. وكذلك الوضيع الخامل الذكر يجد من هو دونهُ بنوع من الضعة فقد صحّ ما وصفناه. وينتفع المرء باستعمال السياسات مع هؤلاء الطبقات الثلاث. امّا مع الارفعين فلينال مرتبتهم وامّا مع الاكفاء فليفضلَ عليهم. وامّا مع الاوضعين فلئلا ينحطّ الى رتبتهم

ونقول ايضاً انّ انفع الامور التي يسلكها المرء في استجلاب علم السياسة وغيره من العلوم ان يتأمل احوال الناس واعمالهم ومتصرّفاتهم ما شهدها وما غاب عنها ممّا سمعهُ (١ وتناهى اليهِ منها وان يُمعن النظر فيها ويميّز بين محاسنها ومساوئها وبين النافع والضارّ لهم منها ثمّ ليجتهد في التمسُّك بمحاسنهـا لينال من منافعها مثل ما نالوا وفي التحرُّز والاجتناب من مساوئها ليأمن من مضارّها ويسلم من غوائلها مثل ما سلموا

ونقول ايضاً انّ لكل شخص من اشخاص الناس قوّتين احداهما ناطقة (٢ والاخرى بهيميّة ولكلّ واحدة منهما [ارادة واختيار وهو كالواقف فيما بينهما. ولكلّ واحدة منهما (٣] نزاع غالب. فنزاع القوّة البهيميّة نحو مصادفة اللذات العاجلة الشهوانيّة مثل انواع الغذاء وانواع الاستفراغات وأنواع الاستراحات. ونزاع القوّة النطقيّة نحو الامور المحمودة العواقب (٤ مثل أنواع العلوم وأنواع الافعال التي تجدي العواقب المحمودة

فاول ما ينشأ الانسان في حيّز البهائم الى ان يتولّد فيهِ العقل اولاً فاولاً وتقوى فيه القوّة الناطقة. فالقوّة البهيميّة اذن أغلب عليهِ وكل ما كان اقوى وأغلب فالحاجة الى اخمادهِ وتوهينهِ واخذ الأهبة والاستعداد لهُ اشدُّ وألزم. فواجب على كل من يروم نيل

١) وفي النسخة الواتيكانيّة: «ما يُشاهد وما غاب ممّا سمعهُ»
٢) وفي نسخة الواتيكان: «عاقلة»
٣) قد اسقط الناسخ ما وضعناه بين قوسين نقلًا عن النسخة الواتيكانيّة
٤) وفي النسخة الواتيكانيّة: «نحو العواقب المحمودة»

الفضائل ان لا يتغافل عن تيقيظ نفسه في كل وقت وتحريضها على ما هو اصلح لهُ وان لا يهملها ساعةً فانهُ متى ما اهملها وهي حيّة والحيّ يتحرّك لا بُدَّ من ان تتحرّك نحو الطرف الآخر الذي هو البهيمي واذا تحرّكت نحوهُ تشبّثت ببعض منهُ حتى اذا أراد ردّها عمّا تحركت اليه لحقهُ من النصب اضعاف ما كان يلحقهُ لو لم يهملها ويعطّل وقتهُ الذي كان ينبغي ان (٤٩ ٧) يحصل فيه فضيلةً لاشتغاله بالاحتيال لردّها عمّا تحركت نحوهُ وفاتتهُ تلك الفضيلة

ونقول ايضاً انَّ المرء لا يخلو في جميع متصرفاته من ان يلقى امرًا محمودًا او امرًا مذمومًا ولهُ في كل واحد من الامرَين فائدة ان استفادها ويجد في كلّ واحد منهما نفعًا يمكنهُ جذبهُ الى نفسه ويصادف في كل واحد منهما موضع رياضة لنفسه وهو انهُ يحتال للتمسك بذلك الامر المحمود الذي يلقاهُ ان وجد السبيل الى التمسّك به او يتشبّه بالتمسّك به بقدر طاقته ان اعوزهُ ذلك او يُحسن ذلك الامر عند نفسه ويثبّتها على فضله (١ ويوجب عليها التمسّك به متى ما وجد الفرصة لذلك وهو لا شكّ واحدُ السبيل (٢ الى هذه الثلاث. واذا تلقّاهُ الامر المذموم فليجتهد في التحرّز منهُ والاجتناب عنهُ وان لم يجد الى ذلك سبيلًا وهو واقع فيه فليبالغ في نفيه عن نفسه بغاية ما امكنهُ وان لم يمكنهُ التبرُّؤ منهُ فليعزم على نفسه انهُ اذا تيسّر لهُ الخلاص منهُ لا يعود الى اشباهه. وليُقبّح الى نفسه دواعي ذلك الامر وليُنبّهها على الاعتبار بمن نالهم مضارُّ مثالها. فقد ظهر انَّ المرء يصادف في جميع احواله دقّها وجلّها خيرها وشرّها موضع الرياضة لنفسه

ونقول ايضًا انَّ اوّل ما ينبغي ان يبتدئ به المرء هو ان يعلم انَّ لهذا العالم واجزائه صانعًا بأن يتأمّل الموجودات كلها هل يجد لكل واحد منها سببًا وعلّةً ام لا. فانهُ يجد عند الاستقراء لكل واحد منها سببًا عنهُ وُجد. ثمّ ينظر الى تلك الاسباب القريبة من الموجودات هل لها اسباب ايضًا ام ليست لها اسباب. فانهُ يجد لها ايضًا اسبابًا. ثمّ يتأمّل وينظر هل الاسباب ذاهبة الى ما لا نهاية [لهُ ام هي واقفة عند نهاية ام بعض الموجودات اسباب البعض على سبيل الدور. فانهُ يجد القول بانها ذاهبة الى غير

١) ويروى: على فضيلته ٢) ويروى: احدُ السبل

نهاية (١] محالًا ومضطربًا لانهُ لا يحيط العلم بما لا نهاية لهُ. ويجد القول بان بعضها سببٌ للبعض على التعاقب محالًا ايضًا لانهُ يلزم من ذلك ان يكون الشيء سببًا لنفسه كما انهُ لو كان الألف سببًا للباء والباء سببًا للجيم والجيم سببًا للدال لكان الالف سببًا لنفسه وهذا محـال. فبقي ان تكون الاسباب متناهية. واقلّ ما يتناهى اليه الكثير هو الواحد فسبب الاسباب موجود وهو واحد (46ᵛ). ولا يجوز ان يكون ذات السبب وذات المسبَّب واحدًا فسبب اسباب العالم منفردٌ بذاتهِ عمَّا دونهُ

ولمَّا لم يقدر الانسان على معرفة شيء سوى ما شاهدهُ بحواسّه وفهمهُ بعقلهِ ممَّا (٢ شاهدهُ لم يجد بدًّا من وصف الباري الذي هو سبب الاسباب والعبارة عنهُ بما وجد السبيل اليه من الالفاظ والاوصاف فلمَّا اراد العبارة عنهُ والوصف لهُ وعلم انهُ لا يلحقهُ شيء من جميع الاوصاف التي شاهدها وعلمها لتفرُّدهِ بذاتهِ ولانهُ منزَّهٌ عن كل ما أحسَّهُ وعرفهُ لم يجد طريقًا احسن من ان ينظر في الموجودات التي لديهِ فاذا تأمَّلها وجدها صنفين فاضلًا وخسيسًا ووجد الأليق والاجدر بسبب الاسباب الواحد الحقّ ان يُطلق عليه من كل الصنفين افضلهما. مثل انهُ رأى الموجود والمعدوم وعلم ان الموجود افضل من المعدوم فأطلق القول عليهِ وقال: انَّهُ موجود. ورأى الحيَّ وغير الحيِّ وعلم انَّ الحيَّ افضل من غير الحيِّ فاطلق القول عليه وقال: انهُ حيٌّ. ورأى العليم وغير العليم فاضاف اليه العلم. وكذلك جميع الاوصاف. على انَّ الواجب على كلّ من يصف الباريء بصفة ما ان يخطر بباله مع تلك الصفة انهُ بذاتهِ منزَّه عن ان يُشبه تلك الصفة بل هو أفضل واشرف واعلى وانَّهُ لا يتهيأ لاحد إحاطة العلم بهِ كما هو [مستحقٌ لهُ]

ثم أنَّهُ اذا علم هذا الذي وصفنـاهُ فينبغي ان يتأمل اجزاء العالم كلّها فانهُ يجد افضلها ما هو ذو نفس ويجد افضل ذوي الانفس الذي لهُ الاختيار والارادة والحركة [التي عن رويَّة] وافضل ذوي الارادة والحركة [عن الرويَّة] الذي لهُ التمييز والفكر والنظر البليغ في العواقب وهو الانسان [الفاضل]. وان يعلم مع ذلك ان الطبيعة لا تفعل شيئًا باطلًا فكيف مبدع الطبيعة والباري تعالى حيث هو وهب الاختيار والفكر والرويَّة للبريَّة لم يكن ينبغي ان يهمل امرها. وكان من الواجب في عدلهِ وصنعهِ المتقن

١) سقط ما وضعناهُ بين معكّفين من الاصل فأعدناهُ اليهِ نقلًا عن النسخة الواتيكانية

٢) ويروى: عمّا

ان ينهج لها منهجاً يسلكونهُ ولمّا كان ذلك واجباً (١ لم يكن ينبغي ان يُرسل اليها من ليس من طبعها (٢ لانهم لم يكونوا يقدرون على الاستفهام ممن هو من غير طبعهم فظاهر انَّ في الناس وفي عقولهم وقوى نفسهم تفاضلًا بيّناً حتى انَّ الواحد منهم يفوق (46v) بالفن الواحد جميع ذوي جنسهِ ويعجز الباقون عنــهُ فممكن اذن ان يكون من الناس من يقوى على ان يوحى الى قلبهِ ما يعجز ذوو جنسهِ عن مثلهِ (٣ حتى يقوم ذلك الواحد بتبليغ ما يُلقى اليهِ ويقدر بتلك القوة وذلك الإفهام على تشريع الأحكام ونهج السُّبل الداعية الى صلاح الخلق

ثمَّ ينبغي ان تعلم أنهُ اذا ظهر مثل هذا الوجه وتبيَّن امرهُ (٤ فالواجب على كلِّ ذي تمييز اتباعهُ وان تعلم ان لكلِّ واحد من الناس تمييزاً ومعرفةً فمتى وجد الافهام الكثيرة والآراء المختلفة مجتمعةً على كلمة واحدة ولم يُجد ما هو اظهر منهُ (٥ وأكشف واقوى فليتَّبع الكثير فانَّ الحقَّ معهم والسلامــة ابدًا مع الكثير. وينبغي ان لا تغرُّهُ الواقعات في الندرة وفي الآراء المزخرفة فان اكثرها اباطيل اذا تأمَّلها نعماً

ثمَّ ينبغي ان يعلم انَّ المكافأة واجبة في الطبيعة وانها انَّما تجب في الاعمال المقرونة بالنيَّات. والدليل على ذلك انَّ المرء لا يُجازى على ما يعملهُ في نومــهِ ولا على ما ليس من ارادتهِ واختيارهِ مثل سُعالهِ وعطاسهِ وحياتهِ وموتهِ وتنفُّسهِ واغتذائهِ واستفراغهِ [وان كان فيهــا بعض الارادة (٦]. ولا يجازى ايضاً على نيَّاتهِ المجرَّدة. واوّل ما ينبغي ان يستدلَّ بهِ المرء على وجوب المكافأة هو انهُ متى ما اعتقد ما تقدَّم ذكرهُ من معرفــة البارئ ووحدانيَّتهِ وتنزّههِ عن صفات المخلوقين ومعرفة رسولهِ في ايِّ زمان كان وانتهج

---

١) وروى: كان ذلك بالواجب ٢) يمكنهُ تعالى ان يبلّغ اوامرهُ للبشر توًّا دون وسيط او رسول لكنهُ عزَّ وجلّ يختار عادةً من يتوسَّط بينهُ وبينهم (راجع رسالة القديس بولس الى العبرانيين الفصل الخامس) ٣) وزد على ذلك ان الله اذا اختار لهُ رسولاً لتبليغ ارادتهِ للبشر يجمّلهُ بالصفات التي تؤهّلهُ لهذه الدعوة

٤) يتبيَّن امر الرسول المرسل من الله بالمعجزات الصادقة التي يصنعها

٥) قولهُ « ولم يجد ما هو اظهر منهُ » يدل على انَّ المرء في معرفة الرسول الصادق لا يكفيهِ اتباع العدد الاوفر بل ينبغي لهُ ايضاً ان يستعين مع ذلك بقواهُ العقليَّة ليرى صحة الرسالة ويميزها عن الرسالة المدَّعاة

٦) سقط من نسختنا وهو في النسخة الواتيكانية

النهج المستقيم وجد في صدرهِ سعةً وفي احوالهِ استقامةً وعن الاشرار سلامةً وعند الاختيار حظوةً وفي معاشهِ سداداً مقداراً ما يفعلهُ وينويهِ منهُ . واذا تيقَّن ذلك فينبغي ان يُقدِم على سياسة الاحوال بقلب قويّ ونيَّة صادقة وصدر واسع وثقة بان ما يأتيهِ من ذلك وان قلَّ يجدي عليهِ نفعاً جُلّاً (الباقي للآتي)

اديرة مصر الاولى للقديس باخوميوس

للباحث المدقق الاب ميشال جوليان اليسوعي (تتمَّة لما سبق)

٣ دير تابنَّة

في وصفنا السابق لدير فاو بيَّنَّا ما صار اليهِ ذلك المقام من الشهرة بكثرة رهبانهِ وعجيب ترتيبهِ الَّا انَّ هذا الدير كان سبقهُ دير آخر يعدُّهُ المؤرخون كمهد المعيشة الرهبانيَّة على طريقة القديس باخوميوس الَّا وهو دير تابنَّة المدعو بالقبطيَّة تابنيسي ومعناها « نخيل الإلهة ايسيس » وهاك بالاختصار خبر هذا الدير كما ورد في ترجمتيهِ القديتين

بينما كان باخوميوس متنسكاً تحت نظارة الشيخ الجليل القديس باليمون اذ ألهمهُ الله في ذات يوم ان يخرج الى البرّيَّة كمألوف عادتهِ فهام على وجههِ سائراً بين الادغال والاشواك حتى قطع عشرة اميال (١ فوصل الى تابنَّة حيث جثا راكعاً وصلَّى الى الله ملتمساً منهُ ان يكشف لهُ ارادتهُ تعالى عزَّ وجلَّ . وبقي مستغرقاً بالصلاة ساعات طوالاً حتى اتاهُ صوت من السماء يكرّر على مسامعهِ هذه الاقوال: « جاهد الجهاد الطيّب وامكث في هذا المكان وابنِ لك قلايةً فيأتيك جمٌّ غفيرٌ من النسَّاك يتلمذون لك ويسلكون تحت قيادتك طريق الكمال »

فلمَّا علم باليمون برؤيا تلميذهِ هلَّت الدموع من عينيهِ مليًّا ثمَّ صرخ: « بُنيَّ أَتتركني في شيخوختي بعد سبع سنوات قضيتها تحت طاعتي . ولكن فلتتمّ مشيئة الرب على الدوام . فاذهب الى حيث يدعوك الله ولا اطلب منك سوى نعمة واحدة وهي ان

١) وفي الترجمة الافرنسيَّة التي نشرها المسيو أَمِلينو « سار ميلًا » وهو غلط لا يوافق النصَّ القبطي

تزورني مرّة في السنة وانا كذلك افتقدك مرّة كل عام الى ان يدعوني الله اليهِ. فهلمّ بنا الان نذهب الى تابنّة ونبتني لك فيها منزلًا »

فتحفّز باخوميوس للعمل وشمّر عن ساعد الجدّ وباشر بنساء دير كافٍ لعدد غفير من الرهبان. وكان لهُ اخ يُدعى يوحنّا يمينهُ في شغلهِ الّا انهُ كان يتعرّض لهُ مرارًا في سعة البناء وعظمتهِ ولا يرى داعيًا لمسكن رحب كهذا. غير ان رجل الله لم يُصغِ الى مقالهِ وانجز عملهُ كما عزم عليه سابقًا. ونِعمّ ما فعل لانّ طالبي الكمال تقاطروا اليهِ من كلّ فجّ وأوب حتى ضاق بهم المكان مع رحبهِ وذلك ما حملهُ على تشييد دير فاو السابق ذكرهُ. ولعلّ ضفّة النيل لم تسمح للقديس بتوسيع نطاق هذا الدير كما كان يرغب او تكون المياه طغت على حدودهِ فانهار منها قسمٌ وجرفها السيل

ولشدّ ما كنّا نروم ان نستكشف عن آثار هذا الدير الذي طلبهُ قبلنا في القرن الثامن عشر السائح الشهير والمرسل اليسوعيّ المنير الاب سيكار (Sicard) لكنهُ لم يجد سوى اخربة دير فاو المنوّه بهِ فظنّهُ دير تابنّة (١. ولئلا يطيش سهمُنا اخذنا نطالع تراجم القديس باخوميوس لنستفيد منها الاعلامات التي من شأنها ان تعرّفنا موقع دير تابنّة. فمن الاوصاف السابقة علمنا انّ هذا الدير كان على ضفّة النيل الشرقيّة كمّام باليسون في شِنْسِيت على مسافة عشرة اميال منهُ جنوبًا (٢ اعني بصعود النهر الذي كان القدماء يتوهّمون جريهُ في كل مسيلهِ من الجنوب الى الشمال. ونعرف ايضًا انهُ كان جنوبي دير فاو (٣ ليس بعيدًا منهُ لان في تابنّة كان رهبان فاو يخبزون خبزهم (٤ وكان الانبا تاودوروس رئيس تابنة بعد نهاية شغل الدير يسير كلّ يوم الى فاو ليواجه القديس باخوميوس ويسمع ارشاداتهِ فيعود ويكرّرها على رهبان فاو (٥. فكل هذا يدلّ على انّ تابنة كانت قريبة من دير فاو

فسرنا من قصر الصيّاد مستندين الى هذه التعريفات ومشينا ساعةً حتى بلغنا مركز هذه الايالة وهي بلدة دكنا البعيدة عن قنا ٢١ كيلومترًا ونحن لا نشك انّ دير تابنة في جوار دكنا. فبحثنا عن الامر وتحفّينا في السؤال لدى كهنة البلدة واعيانها فكان

١) راجع مجموع رسائل المرسلين Lettres édifiantes, *anc. édit.*, III, 41

٢) ترجمة القديس باخوميوس القبطيّة (ص ٢٦) ٣) الصفحة ٧٠ منها

٤) الصفحة ٤٤٦ من الترجمة العربيّة ٥) السيرة القبطيّة (ص ١٠٤)

جوابهم انهم لم يسمعوا شيئاً عن دير تابنة وانما وجدوا غير مرةٍ في طرف قريتهم آثاراً مسيحيَّة قديمة كصلبان ورموز دينيَّة اذ كانوا يحاولون حفر الاساس لتشييد ابنية جديدة

فاسرعنا الى المحلّ المذكور فاذا هو مكان مرتفع مشرف على النيل فاستدللنا من علوّ حضيضهِ على قِدَمهِ لأنَّهُ معلوم انَّ المصريَّ كان اذا أراد البناء يكتفي بتسوية الارض وتوطئتها ثم يبني من فوقها دون حفر فينتج من ذلك انَّ ارض البناء ترتفع مع توالي الزمان. وكانت مياه النيل قد صدمت هذه الربوة وجرفت منها قسماً ومدّت تحتها وطأً من الرمل

واوّل ما استلفت خاطرنا عند تسريح البصر في هذا المقام قِطعٌ كبيرة من بقايا ابنية قديمة رأيناها على ضفَّة النهر ثمَّ فوق هذه الآثار طبقات متعدّدة من الاطلال المردومة منها أُسس وحنايا وقنيّ وبيوت خربة ترى بعض جدرانها مائلة من علُ فوق القرية الحالية. ثم اقتربنا من النهر الذي نضبت مياههُ في هذه السنة دون السنين الباقية فرأينا في قعرهِ مساند أبوابٍ ضخمة وركناً لعمود مع الاكليل الذي يُحمل فوقهُ وهو على شكل مخروط نُقش على جوانبهِ اوراق بسيطة. فكنا نودّ ان نحفر في وسط هذهِ الاخربة ليزيد علمنا بهذه المآثر القديمة لولا ان ذلك يقتضي نفقات بلينة وهدم بعض الابنية الحاليَّة

بيد انَّ هذه المظاهر البنائيَّة ايدت ظنَّنا في انَّ دكنا المذكورة وتابنَّة القديمة بلد واحد وانَّ بقايا دير القديس باخوميوس هي في وسط الاطلال ومن المحتمل انَّ النهر قد طما فوقها وزحف بها في سيلهِ الجراف. وفي الترجمة العربيَّة تدعى تابنَّة باسم دوناسا وهو اشبه باسمها الحالي

وقد زعم البعض استناداً الى قول (١ سوزومانس المؤرخ انَّ تابنَّة المذكورة جزيرة (ἐν Ταβέννῃ νήσῳ) لكنَّ في هذه الالفاظ تحريفاً والصواب (ἐν Ταβεννήσῳ)

ولئلا يبقى ادنى ريبٍ في امر تابنَّة وان موقعها في دكنا ليس في غيرها تجشَّمنا السياحة في السهل وعلى ضفَّة النيل جنوبي فاو لعلنا نجد محلاً آخر يحتوي على آثار قديمة. واتخذنا دليلاً الخواجا صليب عَلَم من سماتة وهو يملك على قسم كبير من هذه الاملاك وكان معنا شيخ الغفراء. فطفنا كلّ الامكنة المجاورة على مسافة ساعتين وثلاث دون

(١) راجع التاريخ الكنسيّ تيلمون الجزء الثامن (ص ١٢٥ و ٦٧٨)

ان نجد اثرًا قديمًا ايًا كان او خربة تنبئ بوجود بلد هناك في سالف الاعصار لكننا اجتمعنا في القرى التي دخلناها بنصارى الاقباط وسُررنا بما شهدنا فيهم من التقى وروح التديُّن. مثال ذلك انَّ نصارى دكنا مع كونهم عُشر سكَّان البلدة كانوا ابتنوا حديثًا كنيسة كبيرة محكمة البنيان من مالهم الخاص فوجدناهم لمَّا نزلنا عندهم ساعين في نقشها. ورأينا في العزّب وهي قرية تبعد عن دكنا نحو ساعتين في السهل قومًا من النصارى متحمسين في الدين ولهم كنيسة جميلة قديمة يزعمون انَّ عهدها يرتقي الى ألفَي سنة وهم يعظّمونها ايَّ تعظيم

وكنتُ زرت سابقًا مع كاهن الاقباط الكاثوليك في فرشوط قصرَ الصيَّاد وفاو وبتنا عند اهلهما فأُعجبتُ بمَا عاينتُ عند هؤلاء النصارى البسطاء من اللطف والانس والرغبة العظمى في معرفة حقائق الخلاص. وليس لنصارى فاو بيعة يقيمون فيها رتبهم الدينيَّة وهم يذهبون الى دكنا لحضور الذبيحة وعددهم بين ٥٠٠ و ٦٠٠ نسمة

(دير العذارى) ممَّا سُطر في ترجمة القديس باخوميوس (١ انَّ اختهُ مريم اتتهُ زائرةً في احدى السنين وهو متنسّك في تابنّة. لكن القديس اذ لم يرضَ بمواجهة النساء ارسل اليها البوَّاب يبلّغها ان: «لا يسؤكِ يا أُختي ألَّا تشاهدي وجهي وكفاكِ ان تعرفي اني حيٌّ سالم. وهيَّا انظري يا أُختي لعلَّ الله يدعوكِ الى الزهد بالعالم والعيشة النسكيَّة. فان رضيتِ بذلك ارسلتُ بعضًا من رهباني يبنون لكِ ديرًا بعيدًا من هنا». فاذرفت مريم اختهُ الدموع لدى استماعها هذا الكلام ثمَّ لبَّت الى دعوة اخيها. فبنى لها ديرًا في عبر النهر دُعي دير العذارى تواردت اليه الفتيات ليتجرَّدن لخدمة الله وكنَّ يتبعنَ قانون القديس باخوميوس. وكان وليُّ الله جعل لهنَّ مرشدًا احد رهبانه المدعو بطرس وكان شيخًا جليلًا صالحًا. وكان بعض الاخوة يقيمون الرُّتب الدينيَّة في كنيسة الدير ويفلحون اراضيها لكنَّهم كانوا يعودون المساء الى تابنّة ولم يُسمح لهم ان يأكلوا طعامًا عند الراهبات. امَّا العذارى فكنَّ ينسجن اثواب الرهبان ويخطنها من الكتان والصوف للذين يرسلها لهنَّ الوكيل الاكبر (الايكونوموس)

ولكن ترى اين موقع هذا دير العذارى؟ فبعد البحث والتنقيب وجدنا على ضفة النيل الشماليَّة اسفل من دكنا بنحو خمسة كيلومترات مزرعة لاحقة بقرية «سالات»

١) الترجمة اليونانية (ع٢٢) القبطية (ص٣٦) والعربية (ص١٣٨)

اسمها « تابنة » فرأينا مقامها انسب ما يكون لمقام دير العذارى. ولعلَّ اسمها دليل على ذلك

٤ اديرة طبيو وتُموشنس واخميم واسنة

(دير طبيو) بعد انتشار العيشة النسكيَّة على يد القديس باخوميوس سمع بذكرهِ رجلٌ تقيّ اسمهُ بترونيوس كان قد ابتنى لنفسهِ ديرًا يسمَّى طبيو في احد املاك اسرتهِ الشريفة فارسل الى القديس رسالة هذا مضمونها : « فلتشملنا محبتك بنظرها ولتتفضَّل الى حقارتنا لكي نستظلَّ نحن ايضًا في حمى هذه العيشة النسكيَّة التي اوحى بها اليك السيد المسيح (١) »

فاجاب القديس باخوميوس الى سؤل بترونيوس ونظم ديرهُ في سلك اديرتهِ وكان بترونيوس وقف كلَّ ارزاقهِ على هذا الدير فتولى امرهُ مدَّة الى ان رأسهُ باخوميوس على دير طسميني بقرب اخميم واقام ابولونيوس مقامهُ في طبيو

واذا بحثنا اليوم عن طبيو وديرها لا نجد لها من اثر. وغاية ما نعرف عن هذا الدير ان موقعهُ كان في معاملة حاو كأديرة شنسيت وفاو وتابنة. اما حاو فهي المدينة المدعوَّة باليونانيَّة ديُوسپوليس الصغرى. وفي ترجمة القديس باخوميوس العربيَّة (ص٥٧٣) تدعى طبيو « الطواوي » ولعلَّ اسم طبيو كان يدل في اول الامر على ارض لا على قرية معلومة. ولكن دعانا نذكر ديرًا آخر وهو دير تموشنس فانَّ في وصفهِ ما يرشدنا الى معرفة دير طبيو

(دير تموشنس) تموشنس وتدعى مُنشُوسيس كانت منسكًا لجماعة من الرهبان المتفرّدين فاتفقوا مع رئيسهم يونان ان يدخلوا تحت قانون القديس باخوميوس فكتبوا اليهِ في الامر فاجاب الى ملتمسهم وهي ثالث جماعة من الرهبان انضوت الى رهبانيَّة القديس باخوميوس

ولنا في ترجمة وليّ الله ما يبيّن لنا مقام تموشنس على التقريب. اخبر صاحب الترجمة القبطيَّة (ص١٢٠) انَّ القديس كان يومًا في دير فاو اذ اتاهُ عند مساء النهار ساعٍ يعلمهُ بان احد رهبانهِ في تموشنس على وشك النزاع وهو مع ذلك لم يُصبغ بماء العماد. فسار باخوميوس من ساعتهِ مع تلميذه تاودوروس فمشى نصف ليلتهِ حتى وصل الى تموشنس. فلمَّا دخل الدير رأى ملَكين نزلا من السماء ليعمّدا الراهب النازع — ويخبر في الترجمة

---

١) الترجمة القبطيَّة (ص ٨٦)

عينها ان القديس ارسل يوماً آخر تلميذهُ تادوروس ليتفقّد امور الاخوة في تموشنس ·
فسار للحال ولمَّا وصل الى شنسيت انتظر زورقاً يقلُّهُ الى العبر الموازي ويذهب الى جهة
الغرب · وبعد ان قطع النهر مشى ايضاً مدَّة قبل ان يدرك تموشنس (الترجمة العربيَّة ص
٥٨٣) — ونستفيد من محلّ آخر (الترجمة القبطيَّة ص ١٢٠) انَّ القديس قضى مرَّة ليله
في تموشنس ولمَّا اصبح صلَّى الصلاة القانونيَّة مع رهبانهِ وتقرَّب ثمَّ رحل الى طبيو فزار
الاخوة ورجع مسرعاً الى فاو

فيؤخذ من هذه الافادات ان تموشنس تبعد نحو ٢٠ كيلومتراً من فاو او على الاكثر
٣٠ ك وانَّ اقرب طريق بينهما تمرّ بشنسيت ولا بدَّ من عبور النهر ومواصلة السير
مدَّة قبل البلوغ الى تموشنس · وكذلك يظهر ممَّا سبق انهُ يمكن العود من تموشنس الى فاو
على طريق طبيو

فاستناداً الى ما سبق سرنا من قصر الصيَّاد على مسافة ١٢ كيلومتراً بالتقريب ثمَّ
عبرنا النيل فوق قرية «نجع حمادي» فمشينا ثلاثة ارباع الساعة مبتعدين عن النهر حتى
ادركنا بيجورا وهي بلدة كبرى فيها كثير من آثار اديرة قديمة · فقدَّرنا ان تموشنس كانت
قريباً منها ألا انَّ الاهلين لا يعرفون شيئاً من امر هذا الدير بل يجهلون اسمهُ تماماً · امَّا
الآثار الباقية هناك فاخطرُها شأناً بقايا دير يعرف بدير النصارى وهو اليوم عبارة عن
ضيعة صغرى في وسطها كنيسة عتيقة مبنيَّة على اسم القديس بيباپ او بيتاپ وكان
راعياً على بيجورا ثم صار اسقفاً على مدينة قبطوس واستشهد على عهد ديوقليسيان (١)·
امَّا القديس باخوميوس فليس لهُ من ذكرى هنا

ثمَّ خرجت من بيجورا وسرت الى حو او حاو قرية كبرى على ضفَّة النيل الغربيَّة
ومسافتها من دكنا سافلاً منها عشرة كيلومترات وموقعها جميل تقرّ لهُ العين وهي تشرف
على النيل في احدى عطفاتهِ ولذلك قد جرف النهر من تربتها قسماً صالحاً · وقد عاينت
في قعر النهر آثار جامع حسن طغت عليهِ المياه · ولكني لم اجد احداً يهديني الى ضالَّتي
اعني دير طبيو او الطواوي

وانما زرتُ ديراً باسم القديس ميناس يبعد نحو نصف الساعة من حاو في السهول
المنبسطة هناك · وهذا الدير لهُ شهرة في تلك الانحاء · امَّا تاريخهُ فمجهول لم يفدني عنهُ

---

١) عيدهُ واقع عند الاقباط في ١٠ من شهر ابيب · امَّا ترجمتهُ فكاتبها تاوفيلوس اسقف قبطوس

شيئاً ثلاثة من كهنة الاقباط استعلمت لديهم عن اخباره. وهناك حجارة قديمة متفرشة كانت داخلة في بناء سابق درست آثاره. وفتَّشتُ لعلّي اكتشف كتابةً قديمة فلم اظفر بشيء. وفي جنوبي هذا الدير رمالٌ جعل فيها المسلمون والنصارى مدافنهم

وعندي ان هذا المكان يوافق موقع دير طبيو الذي سبق ذكرهُ وهو على مسافة ست ساعات من تابنَّة وليس بعدهُ من هذا الجانب دير آخر للقديس باخوميوس

(دير اخميم) هلمَّ بنا الان نسير شمالي تابنَّة ونبحث قرب مدينة اخميم عن دير آخر ابتناهُ القديس باخوميوس وهو دير يسمَّى باليونانيَّة « طاله » او « طاسه » وبالقبطية طسي (Tsi) وبالعربيَّة شِدسينا (١. وهاك ما ورد في التاريخ عنها:

كان اسقف اخميم المدعو آريوس احبَّ ان يقرّب الرهبان من مدينتهِ فاعطاهم ارضاً قريبة من سور البلد وعمَّر القديس باخوميوس ديرًا كبيرًا عُرف باسم دير شمين او اشميم وعرَّبهُ العرب بدير اخميم وهي المدينة التي دعاها اليونان بانوبوليس اي مدينة الإله بان. وقد تكلَّف القديس على ابتناء هذا الدير عرق القربة لما وجدهُ في بعض اهل المدينة من المقاومة وكان من جملة هؤلاء قومٌ من المتفلسفين كانوا يجادلون الرهبان ويعرضون عليهم المشاكل والأحاجيَّ ليعرقلوهم ويزدروا بهم فاقام القديس في دير اخميم رجالاً متضلّعين بالعلوم الدينيَّة ليكسروا من زهوهم (٢

ونما عدد الرهبان بقرب اخميم نموًّا عجيباً حتى اضطرَّ القديس باخوميوس الى بناء دير ثالث دعاهُ دير مينة او تيمينة ورأس عليه بترونيوس وكان موقع هذا الدير بجوار دير طسي

وزاد على الاديرة الثلاثة ديرًا رابعاً للعذارى المترهّدات اقامهُ قرب تيمينة فازهر بعد قليل حتى اوى اليه نحو ٤٠٠ راهبة (٣

---

١) راجع ترجمة القديس باليونانيَّة (ع ٥٢) وطرائف باللغة الصعيدية نشرها المسيو اميلينو في مجلَّة البعثة الفرنسويَّة في القاهرة (الجزء ٤ ص ٥٢٥) والترجمة العربية (ص ٥٦٨)

٢) وقد جاء في ترجمة القديس اليونانية (ع ٥١) بعض هذه المشاكل قال: سأل بعضهم الانبا تاودوروس: من هو الانسان الذي مات ولم يولد. قال: آدم. قال: واي انسان وُلد ولم يَمُت. قال: اخنوخ. قال: واي حيّ مات ولم تنتن جيفتهُ بالنتن. قال: امرأة لوط التي صارت نصب ملح

٣) راجع الترجمة اليونانية (ع ٨٦) وتاريخ پالاديوس (الفصل ٣٩)

فكنّا نودّ لو لقينا شيئاً من آثار هذه الاديرة لكنّنا بعد البحث المدقّق عن دير اخميم وجدنا انَّ دون اكتشاف اخربته خرطَ القتاد وذلك لانَّ صروف الدهر قد ثقلت وطأتها على هذه المدينة فلم تكد تبقي شيئاً من ابنيتها القديمة كهيكل الإله بان وكنيسة الشهداء اللهمَّ الَّا ردماً كثيراً شماليَّ المدينة حيث ترى اليوم مقبرة المسلمين. ولعلَّ النيل سادر بسيله ذلك الدير وغطَّاهُ بطينه الاسود اللزج كما فعل بهيكل روماني كان مبنيًّا جنوبيَّ المدينة لا ترى منهُ اليوم الّا بعض اركانه القديمة. ويؤيد قولنا ما دوَّنهُ صاحب ترجمة القديس وهو انَّ لسقف اخميم لمَّا دعا رجل الله الى بناء دير في مدينته اتحفهُ بقارب قائلاً: « دونك هذا القارب لانك اليه في حاجة ماسَّة » وفي هذا القول دليل على ان البناء كان على ضفَّة النهر فلا عجب اذا زحف به السيل في كرّ الدهور

وكذلك لم يسعدنا الحظ على وجود ديرَي طسي وطسمينه الذين كان موقعهما في أرباض البلد ليس بينهما مسافة كبيرة. ولمَّا بحثنا عنهما لم نجد من سمع بذكرهما او عرف اسماءهما المختلفة. وانَّما يوجد على بُعد ساعة من اخميم جنوباً فوق ربوة تشرف على النيل ديرٌ اسمهُ دير الحديد والعامَّة تدعوهُ ايضاً الدير الابيض وبقربهِ كان للرومانيين مركز يُعرف بمركز « طومو ». وهذا الدير شبيه باديرة القديس باخوميوس وان كان احدث منهُ عهداً وعلى رأينا ان رهبانهُ بنوهُ بعدهُ وهو الى اليوم في حالة حسنة اتخذهُ بعض الفلاحين مسكن يأوون اليه. ولا كاهن هناك للصلاة

امَّا اخميم التي زهت فيها الطريقة الرهبانيَّة في القرن الرابع فانها كانت وقتئذٍ مدينة حافلة بالسكَّان غنيَّة بمرافق العيش. وفي مدافنها القديمة التي تُرى في سفح الجبل شرقاً وُجدت مئون بل الوف من جثث النصارى المحنطة. وفيها الى يومنا هذا جمٌّ غفير من نصارى الاقباط يبلغ عددهم نحو ٨٠٠٠ (على ٢٠٠٠٠ نسمة) وكلهم معروفون بنشاطهم ولطف اخلاقهم. وقد لقينا بينهم عادةً لم نرَ لها اثراً في مكان آخر وهي ان التجَّارين يصطنعون توابيت الموتى مجَّاناً لكل اهل ملَّتهم

(اسنا) بعد ان نشر القديس باخوميوس العيشة الرهبانيَّة في جهات الشمال الهمهُ الله في الرؤيا ان ينشئ لهُ اديرة في الجنوب. فسار الى طيبة ومنها الى اسنا حيث كان الله منَّ عليهِ بالتنصُّر فاخذ ينشئ ديراً عند جبالها المعروف عند اليونان باسم يخنوم وبالقبطيَّة فنوم امَّا العرب فيسمونهُ ابنوم وبهنوم

وقد لقي القديس في سبيل مشروعهِ هذا عوارض شتى من اسقف المدينة وتحزّب عليهِ اهل البلد غير انَّ وليَّ الله صبر على البلاء. فاتاهُ ربُّهُ بالفرج وتمكَّن من اتمام ديرهِ وكان ديرًا متّسع الارجاء محكم البناء اقام عليهِ كرَئيس رجلًا فاضلًا يُدعى ساويروس

وبعد بُرهة من الدهر اجتمع اساقفة تلك الناحية وكهنتها للنظر في امور الدين فاستقدموا الانبا باخوميوس الى كنيسة اسنا وألقوا عليهِ عدَّة اسئلة ليتحقّقوا صحّة ما يُخبر عنهُ من المعجزات كمعرفة اسرار القلوب والانباء بامور مستقبلة الى غير ذلك ممَّا كان يتناقلهُ الناس بصددهِ. فاجاب وليّ الله بكل حكمة ورقّة على هذه الاسئلة

فلمَّا انتهى من الكلام اذ دخل الكنيسة رجل من الاوباش بهِ مسٌّ وهجم على القديس ليفلق رأسهُ بعصاة ضخمة لكنَّ الله نجَّاهُ من يدهِ وارفضّت الجماعة فعاد القديس مع رهبانهِ سالمًا الى دير بخنوم في تخوم مدينة لاتوبوليس (١

فلاتوبوليس المذكورة هو اسم اسنا باليونانيَّة دُعيت بذلك اشارةً الى معبودتهم السَّمكة لاتو. امَّا اسم الدير وهو بخنوم فمعناهُ بالقبطيَّة بيت خنوم وكان خنوم اعظم آلهة مدينة اسنا. والهيكل العظيم الذي يسمى علماء العاديَّات المصريَّة بنزع الردم عنهُ كان مشيَّدًا لذكرهِ. وقد ورد اسمهُ مرارًا في ردهة العواميد التي رُممت مؤخرًا

امَّا مقام الدير القديم فكنَّا نحدس انَّ موقعهُ غربيَّ المدينة في وسط مزدرعاتها. والحقّ يقال انَّ ظنَّنا لم يخب هذه الدفعة فان اعيان المدينة افادونا ان الفلاحين بينا كانوا يحفرون في الرمل غربي البلد بين الجبل المجاور والزروع اذ وقفوا على بقايا كنيسة كبرى مع ابنية شتى لاحقة بها. فوجدوا المذابح في مكانها المعتاد ونقوشًا بيّنة على جدران الكنيسة فاتفقت آراؤهم على انَّ هذه الاخربة هي دير القديس باخوميوس. غير انهم اعلمونا بان الريح سجّت هذه الاخربة برمل البرّيَّة

فللحال تحفَّزتُ لزيارة هذا المكان ورافقني كاهن قبطي ابن راعي الكنيسة الكبرى وهو رجل كثير الآداب لطيف المعاشرة فسرت واياهُ. وكان طريقنا على دير شهير متقن البنيان يُسمَّى دير الشهداء. وهو الدير الذي يدعوهُ بعض الكتبة بدير أمونيوس. فبعد زيارتهِ اخذنا معنا حارس هذا الدير كدليل وسرنا في وجهة الشمال نحو نصف الساعة

١) راجع ترجمة القديس اليونانية (ع٥٢ و ٧٢) والقبطيَّة (ص ٧٨) والعربيَّة (ص ٥٢٥ و ٦٥١)

حتى بلغنا طرف المزروعات ثمَّ ملنا الى الغرب ومشينا نحو ٦٠٠ متر على بُعد نحو اربعة او خمسة كيلومترات من المدينة فوجدنا آكامًا مرتفعة فوق الحضيض تملوهُ بضعة امتار فقال الدليل: هذه الكنيسة المطلوبة. وهنا الابنية المقصودة

وألقيت النظر على المكان واذا نحن في سهل عرضهُ نحو ثلاثة كيلومترات. امّا التربة فوجدتها خلطًا ممتزجًا من الرمل الخشن والحصى ومن حجارة تساقطت من الجبل وقد نسفت الريح عليها الرمل حتى ساوت ما ارتفع منها وما هبط. وفي هذا السهل مدافن قديمة لا تُحصى وكان لبعضها مداخلُ مفتوحة الّا ان الرمل قد تراكم في باطنها فلا يمكن الولوج اليها

فلم تزل نطلب لنا منفذًا حتى وجدنا حفرةً صغرى دخلها الدليل والكاهن بعد الجهد الجهيد فتتبَّعت آثارهما وانا ازحف على صدري زحفًا. فوجدنا في داخلها حُجرة مكعَّبة الشكل طولها اربعة امتار في مثلها عرضًا وارتفاعًا وهي محفورة في التربة الصلدة وكان سقفها مطليًّا بالملاط الابيض وكذلك جدرانها التي كُتبت عليها بالمغراء بعض الكتابات استفدنا منها انَّ هذا المدفن لأسرة نصرانيَّة تدعى فيب. امَّا القبور فهي محفورة في الارض يدلُّ عليها صليب حسن النقش حُفر فوقها في وسط دائرة يحيط بها اكليل جميل وتزينها كتابة. وممّا كُتب هناك بالقبطيَّة ما نصُّهُ: «الابن المسيح»

امَّا القبر الاوسط فهو كما يظهر لكبير العائلة وعليه تاريخ السنة ٩٩ للشهداء التي توافق سنة ٣٨٣ للميلاد. وفي جهة اخرى رأيتُ حمامتين تحمل كلتاهما في منقارها اكليلًا في وسطهِ صليب وتحت الاكليل باللغة القبطيَّة ما تعريبهُ: «ايها الاب والابن والروح القدس اذكروني في سمائكم انا فيب الخاطئ الحقير واغفروا لي امين» وعلى رأينا ان هذه الكتابة كانت تعلو قبر شاب في مقتبل العمر ابن العائلة السابق ذكرها

وما يزيد هذه الآثار قدرًا انها كُتبت في عهد القديس باخوميوس ولعلَّ هؤلاء الموتى قد اختاروا ان يرقدوا بعد وفاتهم قرب دير القديس ليذكرهم الرهبان في صلواتهم

ونحن نختم هذه المقالة طالبين من الرب ان ينشر في مدينة اسنا روح باخوميوس وايمانهُ القويم لانَّ البدعة اليعقوبيَّة قد مدَّت رواقها واثبتت اطنابها في هذه المدينة حيث لم نجد كاثوليكيًا واحدًا بين الخمسة عشر الفًا من النصارى الذين فيها

* اصلاح * ورد اسم «دشنا» في هذه المقالة بالكاف «دكنا» وهو غلط. والصواب «دشنا»

حبيس بحيرة قدس

للاب هنري لامنس اليسوعي

معربة بقلم المعلم رشيد الخوري الشرتوني (تابع لما سبق)

. . . .

وفي مساء النهار عاد زين الى قصره عيياً من تعب القنص ومتأثراً مما تعرض له من الاخطار فجلس في الغرفة الكبيرة ليستريح. وكانت امرأتهُ وشقيقتها تشتغلان الى جانبهِ وطفلهُ الموردَّ الخدَّين يلاعب على الارض فوق طنفسة عجميَّة كلبةً اسمها «سارحة» من ظراف الكلاب السلوقيَّة ضامرة الحشى طويلة القد. ولم تكن اقلَّ من مولاها لغوباً فاظهرت نفوراً من مداعبة الطفل وجعلت تبحث ولكن بلا فائدة عن محلٍّ تتمدَّد فيهِ وترقد براحة. وكانت ضوضاء البلدة قد سكنت فلا يُسمع من ناحية البحر سوى حسّ الامواج تتكسَّر على صخور الشاطئ ولا يأتي من ناحية البساتين غير شذاً ينعش القلب من ازهار الليمون

فمثل هذا المشهد يصوّر السعادة الهادئة التامَّة اعني سعادة العيلة التي يتوق اليها اصحاب الاعمال خاصَّةً. ولكن ما كل شيء يُحمل على ظاهرهِ لان الظواهر في كثير من الاحيان خدَّاعة

وكان القانص المنهوك يحب في ساعات الحياة البيتيَّة ان يسمع احاديث النساء وعلى الخصوص متى دارت سوق الحكايات واخذنَ — مع اهتمامهنَّ بالمغازل ودواليب الحياكة — ينشدنَ الاشعار والقصائد المخبرة عن مآثر الاولين

وكانت حنَّة صورة حيَّة لشقيقتها او بالحري كانت مُصغَّر رسمها لان ملامحها كانت اشدّ شحوباً واصفراراً وعينيها اعظم زرقةً ولون شعرها اقلّ إشباعاً. ونظراً لاعتدال قامتها لم تكن في شيء من فخامة منظر راحيل وحدة لحظاتها الخرَّاقة. بل كانت من الخفر والحياء في درجة متناهية حتى انها ما رفعت عينيها قط لتنظر في وجه انسان ولذلك ما كان زين يخاطبها مرةً حتى يحمرّ جبينها خجلاً. وحيث انها ما كانت تتوق الى الفخفخة ولا تسعى لها فكانت تجهل هل يقوى حضورها او حديثها على التأثير...

الّا انها كانت اذا رفعت صوتها بالغناء سلبت الالباب واذا قصّت الحكايات والاخبار اوردتها بصوت رقيق ولهجة عذبة. وما كانت راحيل اقل منها براعة في تقطيع اوقات الفراغ بتسلية ولذّة. ولكن من غريب الاتفاق ان حنّة المشهورة بجنانها وخجلها لم تكن تنشد غير القصائد المخبرة عن مواقع الابطال ولا تقص غير اخبار المعارك الدمويّة والحوادث المخيفة بخلاف راحيل التي مع خيلانها وغطرستها كانت تنتقي الاخبار الباعثة على الحنو والشفقة والقصص المنبئة عن الاحوال العيليّة والمحبة الطاهرة بين الزوجين. وتذكر هذا كلهُ عمدًا لعلّها تجد به طريقًا يؤدي الى قلب زوجها الذي كان هو جل مقصدها في كل لفظة من الكلام الذي تروي به قصص الماضين

وكان في صوتها شيء يعمل في القلب ويخرقهُ حتى يتّصل الى أقصاه وفي بعض الاحيان يمثل جميع حركات باطنها كما ان محيّاها يتخذ هيئة حب متوسّل باكيًا رغمًا عنها بغموم نفسها واكدارها. غير ان زينًا كان حتى ذاك الوقت يفضل سماع الحكايات المخيفة التي تقصها الصبيّة ولا يظهر التفاتًا الى القصص المؤثرة مما كانت تحكيه قرينتهُ الفخور المزدراة في محبتها

وقد سبق البيان ان المودّة بين الزوجين كانت قد تضعضعت دعائمها وانحلّت عراها وبما انهُ يصعب غالبًا في مثل هذه الحوادث معرفة الاسباب الحقيقيّة الباعثة الى تنافر القلوب ويتعسّر الحكم بالتدقيق على دواعي المؤاخذات تعيّن القول ان ذلك كلهُ لا تتأتّى نسبتهُ الى احد الفريقين دون الآخر بل هو مشترك بينهما مثلما تؤيده التجربة في اكثر الاحيان

على اننا اذا لاحظنا ما تزيّن به الزوجان من اوصاف الاستقامة وكرم الطباع وسموّ العواطف لا نكاد نرى شخصين أفضل منهما حتى يعيشا متوافقين وسعيدين لان الشبه من هذا الوجه بين زين وراحيل كان تامًّا كاملًا. امّا من سائر الوجوه فلم يكن الامر كما قلنا فان راحيل لكونها من سلالة البارونات آل لبريالك كما مرّ الكلام كانت بالطبع سريعة الانفعال رقيقة الحس ذكيّة الفؤاد فضلًا عن ان التعليم والتهذيب قد زاداها احساسًا وتأثرًا ولهذا كانت تمتعض دون قصد لعدم مشاهدتها في رجلها مثل ما فيها من الاذواق والخصال. على انهُ لم يكن يخطر لها ببال ان تتخذ من مزاياها

هذه سبيلًا للإدلال على قرينها ولكنها من دون التفات جدّي الى شيء من ذلك كانت ترى ان مسافةً بعيدة تفصلهُ عنها

واماً زين فكان رجل نشاط وعمل ربيَ من حداثته في ساحات الوغى فلم يكن يستطيع ان يفطن للاحزان الباطنة التي تؤلم نفس قرينته الطاهرة. ومع احرازه درجة عالية من الحذق والفطنة كان يشعر بانحطاط معارفهِ عن معارفها التي شحذها العلم والدرس ولا يخفاك ان الرجال قلما يتسامحون في مثل هذا الامر. وفي ذاك الزمان وخاصّة في البلاد الشرقيَّة لم يكن الناس بالرغم عن تعاليم الانجيل قد تعوَّدوا المساواة الواجبة ان تكون بين الزوجين المسيحيَّين

ثم ان زَينًا مع كونهِ رجلًا شريفًا مخلصاً التعلُّق براحيل لم يكن يطيق ان يرى منها ميالًا مفترقةً عن اميالهِ ومن ثم كان في بعض الاحيان يعزو الى غرابة طباعها او الى حب النفخفخة النسائيّة ما ليس هو في الحقيقة الَّا نتيجة ما تحلّت بهِ من التهذيب الفائق الذي جعلها بمثابة امرأة مكمَّلة ضلَّت في بيداء القرن الخامس عشر وكانت احقّ بالقرن العشرين. ومن اجل هـذا ما طال الزمان حتى زال ما كان بينهما من الثقة والدالَّة المتبادلة وحلَّ بدلهُ ابتعاد القلوب وتنافرها بنوع ان كلًا منهما كان يخشى ان يفاتح رفيقهُ بما عند نفسهِ

سبق الخبر ان عيلة مقدَّم البترون كانت جالسة ذاك المساء في الغرفة الكبيرة من القصر وتريد الآن ان الصبيَّة حنَّة انقطعت هنيهةً عن العمل ثم رفعت عينيها الزرقاوين ملتفتةً الى شقيقتها كأنها تريد استفهامها واخذت تحكي حكاية كانت قد طالعتها في بعض السير الافرنجيَّة قالت:

حدث في احدى قرى بريتانية في يوم عيد جميع القديسين ان دقَّاق الجرس — وكان اسمهُ كونين — بعد ان استمرَّ يقرع الجرس حتى الساعة العاشرة ليلًا من اجل نفوس المطهر التي كانوا يصنعون تذكارها في ذاك اليوم ذهب الى حجرته فرقد. وكانت الريح وقتئذٍ تصفر صفيرًا وتحمل الورق المنتثر متلاعبةً بهِ في الجوّ. فما كان غير قليل حتى سمع الدقَّاق أجراس القرية تُقرع فقال في نفسهِ: «ما هذا الَّا وهم». ثمَّ حنى رأسهُ على المخدة وهو يقول: «قد اغلقت باب القبَّة باحكام ومفاتيحهُ في جيبي»

الّا ان الاجراس ما فتئت تدقّ فقام كونين من فراشه واشعل فانوساً وخرج في وسط الظلمة الحالكة وهو يقول: « هذه حيلة يحتالون بها عليَّ » وكان في الليلة السابقة قد بارح القبة نحو الساعة العاشرة بعد ان افرغ آخر نقطة من زجاجة النبيذ فكان يمشي وفي اذنيه طنين وفي رأسه تمايل. وقد يمكن ان يكون اغلق باب القبة لكنَّهُ من الممكن ايضاً ان يكون قد دخلهُ احد اصحاب المجون على غير علم منهُ

فلمَّا وصل الى فناء الكنيسة تسمَّع فاذا الاجراس ساكنة هادئة والكنيسة قائمة ليس فيها ادنى بصيص ضوء فقال:

لا شك اني حالمٌ فالخمر التي شربتها مساء امس هي التي تدقّ في دماغي

وبينما هو يهمّ بان يعود سمع صوت الجرس جليًّا يطنّ من خلفهِ فانصت وقال:

هذا بلا ريب طنين الجرس ولا بدَّ ان يكون احد في القبة

ثمَّ انهُ رجع على عقبهِ بكل رباطة جأش وفتح باب الكنيسة وكانت مظلمة ليس فيها غير « الساهرة » موضوعةً امام المذبح الكبير فكانت تُرسل على الخورس نوراً مرتجفاً وتبعث على الجدران البيضاء ظلالاً كبيرة متحركة. وكانت حبال الجرس متدلية على يمين باب المدخل فالتفت اليها فرآها لا تتحرك ومع ذلك كانت دقَّات الجرس الحزنة متتابعة. فحينئذٍ ابتدأ القلق والاضطراب يداخلهُ وصمَّم على ان يرتقي الى سطح الكنيسة ليطلع على الحقيقة ثم اخذ يتسلَّق سلَّماً ضيقةً تؤدي الى القبة فما كاد يَنشَب فيها حتى نفخت الريح نفحة باردة حملت اليه دوي الاجراس واطفأت في الوقت نفسه فانوسهُ فخيِّل لهُ الوهم انَّ رجلاً ينزل من علٍ وان وقع خطاهُ يدنو اليه شيئاً فشيئاً ثم سمع ان الحشيش صار قريباً منهُ فبسط ذراعيه كمن يريد ان يسدَّ الممرَّ على الآتي ولكنهُ لم يشعر الَّا بريح باردة على يديه وبوقع اقدام من تحتهِ يبتعد عنهُ. فسار بسرعة لمطاردة الخيال الذي توهمهُ راقياً الى المذبح الكبير ولكنهُ ما لبث ان رآهُ قد انطفأ وزال بغتةً من امام ناظريه فوقف مذعوراً وقد كلَّل العرق البارد جبينهُ واخذت الرجفة جميع اعضائهِ

ثم التفت الى الخزانة (سكرستيَّة) وكان بابها مشقوقاً والساهرة تلقي عليه نوراً ضئيلاً فتخيَّل لهُ انهُ يسمع فيها صوت تنهُّد وحفيف وَرَق كما لو كان هناك شخص يقلب مُصحفاً. فتقدَّم وجلاً فشاهد على نور القنديل الموضوع امام المذبح الكبير كتاباً

ضخماً كان يعرفهُ ممدودًا على مائدة كبيرة وكان الكتاب المذكور سجلّ الاموات فحدق النظر فيهِ وكان قد صحا من سكرهِ وزالت عنهُ نشوة الخمر فرأى مع العجب ان اوراق السجل تنقلب واحدةً بعد اخرى باصبع خفيَّة تحركها حتى اذا انتهت الى الورقة الاخيرة وقفت ثابتة كانها تستدعيهِ بالحاح ليذهب فيرى

امَّا هو فخفَّ سريعاً لاستطلاع الامر فرأى في اسفل الصفحة الاخيرة اسمهُ مكتوبًا هكذا «كونين» فطار لبُّهُ شعاعاً وصاح صيحةً عظيمة ووقع على البلاط مغشيًّا عليهِ

وفي صباح اليوم التالي وُجد جثةً هامدةً لا حراك بها ويدهُ المتشنجة قابضةً على اوراق الكتاب المصفرَّة . . .

وكان زين يسمع وعيناهُ تتقدان نارًا حكاية الصبيَّة التي كانت تروي بصوت دقيق عذب هذه القصة المفجعة

امَّا راحيل فكانت تحب ان تلحق حكاية شقيقتها بحكاية أُخرى من القصص التي طالعتها في الكتب الافرنجيَّة اي رواية تلك المرأة النبيلة التي وقعت على جثة قرينها المقتول تذرف الدمع مدرارا سخيناً حتى اضطرت نفسهُ التي ارتقت الى السماء ان تهبط الى الارض لتعزيتها (ستأتي البقيَّة)

مطبوعات شرقية جديدة

كتاب رحلة الفيلسوف الروماني

يتضمَّن سيرة المسيح وتفسير الاناجيل الاربعة

تأليف الحبر الجليل السيد جرمانوس معقَّد مطران اللاذقية . طبع في الحدث سنة ١٩٠١ ص ٨٢١

انَّ في مطالعة الاناجيل المقدَّسة نورًا لعقل المسيحي وحياةً لقلبهِ ومثالاً لسلوكهِ تصرف بهمَّتهِ عن السفليات لتسمو بها الى طلب العلويَّات . على انَّ هذه الاسفار مع سذاجتها الالهيَّة وقربها الى الفهم لا تخلو من المشاكل العديدة التي تغمض على القرَّاء فلولا دليل خبير ينهج لهم سبل الحق لما امنت رجلهم العثار . وقد اتاح لهم الله هذا القائد الامين بالسيد المفضال والحبر العلامة جرمانوس معقَّد الذي انجز بعد شغل شاغل لم يثنِ عزيمتهُ هذا الكتاب النفيس نعني بهِ سيرة السيد المسيح لذكرهِ السجود سرد فيهِ جميع

اعمال الرب واقواله سردًا حسنًا وادمج روايات الانجيليين الاربعة على منوالٍ رائق يرتاح اليه القارئ ويُسرّ بالنظر فيه. غير ان سيادة المؤلف لم يكتفِ بذلك بل ابتدع طريقة مبتكرة فتخيَّل انَّ رجلًا رومانيًا من كبراء الفلاسفة دعاهُ مرقس بعد سعيهِ في استجلاء الدين الحقّ صادف بطرس الصفا هامة الرسول يوم دخل ام المدائن رومية العظمى ليبشر فيها بالمسيح. فحرَّك الرسول في قلب الفيلسوف الرغبة في معرفة النصرانيَّة حتى انهُ سافر الى اورشليم واجتمع ببعض شيوخ النصارى الذي لم يزل يتقرَّب الى الحكيم المذكور ويقص عليهِ كلّ ما صنع المسيح منذ ميلادهِ الى صعوده الى السماء نقلًا عن الاناجيل المقدَّسة حتى اجتذبهُ الى الايمان وانتشلهُ من وهدة الوثنيَّة التي لم تكن لترضيهُ تعاليمها وآدابها رغمًا عن بحثهِ الطويل في اشهر مدارس العالم الروماني

هذا مجمل الكتاب الذي نحن بصددهِ وهو بلا مراء التأليف الاوحد الذي كُتب في العربيَّة بهذا المعنى لا نشك في انَّ الشرقيين يتأمَّونهُ بما يحقّ لهُ من التجلَّة والاعتبار. وهو فضلًا عن ذلك مهذَّب العبارة متين التركيب منسجم الرواية يجد فيهِ القارئ ملخَّص تفاسير الآباء للانجيل الطاهر مع افادات كثيرة علميَّة وقف عليها اهل الابحاث واصحاب العاديات في زماننا. ولعلَّ بعض القراء يأخذهم العجب لدى مطالعة شروح او تعليقات لم يألفوها سابقًا. غير ان هذه الاقوال آراء خاصَّة يجوز المدافعة عنها وان لم يسلِّم بصحَّتها قومٌ من المفسّرين. وفي الختام نشكر للمؤلف الفضال عمله الخطير ونخصّ الطوائف الكاثوليكيَّة بل كل نصارى الشرق على اقتنائهِ والارتشاد بتعاليمه السامية

ل. ش

هدايا أُرسلت الى ادارة مجلة المشرق

١ باء المضارع في اللغة العامية للدكتور ادورد غلازر La préformante bâ-, be-, de l'imparfait arabe, v. Dr Eduard Glaser, München, pp. 16

٢ هل كان النصيريون من النصارى. مقالة بالفرنسويَّة للاب هنري لامنس اليسوعي. طبعت في باريس (ص ١٨)

٣ نحن وجراندنا بقلم امين فارس ريحاني

٤ الصاعقة: جريدة انتقاديَّة سياسيَّة ادبيَّة تجاريَّة فكاهيَّة لصاحبها ومديرها الخوري يوحنا سعيد تُطبع في بوينوس ايرس

شذرات

الرجل الشمسي — ان الازمات العديدة التي حدثت في المناجم الفحمية ادَّت باحد علماء الاميركان في كاليفورنيا الى ان يخترع مرجلاً شمسيًّا وذلك انهُ يجمع اشعَّة الشمس بواسطة عاكس (réflecteur) كبير مسطَّح بنحو الغي مرآة صغيرة في داخلهِ فاذا نفذت الشمس فيهِ انعكست اشعَّتها وتجمَّعت حرارتها البالغة في مستوقد العاكس الذي هو متصل بمرجل فيهِ كمّيَّة من الماء يغلي للحال ويتكوَّن منهُ بخار كافٍ لدفع قطار كبير . والعاكس يتحرَّك من ذاتهِ باولب حسب حركة الشمس . وهذا اختراعٌ عظيم يمكن الانتفاع بهِ في البلاد التي لا تُحجب شمسها بالغيوم مدَّة قسم كبير من السنة كبلادنا

مرصد جديد لليسوعيين في الصين — ذكرنا سابقًا مرصد الآباء اليسوعيين للظواهر الجوِّيَّة في زيكاواي (المشرق ٢ : ١٠٠٦) وما يؤديهِ من الخدم الجليلة لكل من يخوضون البحار الصينيَّة . واليوم علمنا انَّ هؤلاء المرسلين اقاموا مرصدًا آخر فلكيًّا على اكمة تدعى زوسي (Zo-Cé) يديرهُ الفلكي الشهير الاب شفاليه وهو على بعد ٣٠ كيلومترًا من مرصد زيكاواي يجمع بينهما تلغراف اثيري بلا اسلاك . والجمعيَّة الجغرافيَّة في باريس كانت في بدء هذه السنة قد جازت مساعي الاب شفاليه بنوط ذهبي واثنت على خارطتهِ العجيبة التي رسمها لنهر ينغ تسي

سباق الاوتوموبيل — ذكرت الجرائد الاخيرة سباق الاوتوموبيل الذي جرى بين باريس وبرلين وقد فاز بقصبتهِ الفرنسوي فورنيه وليست هذه الدفعة الاولى نال بها السهم المعلَّى فانهُ في ٢٩ ايار المنصرم كان قطع بالاتوموبيل المسافة التي بين بوردو وباريس وهي ٥٥٧ كيلومترًا بست ساعات وثاني دقائق اعني انَّهُ تجاوز ٩٢ كيلومترًا في الساعة . فسبق القطار السريع (le rapide) الذي لا يقطع هذه المسافة الَّا بسبع ساعات وثلث

قشر البيض — من النفايات التي يلقيها اهل بلادنا دون ان يرجوا منها خيرًا قشر البيض امَّا الاوربيون فيجمعونها ويجتنون منها فوائد شتى نخصّ منها فائدتين الأولى انهم يخلطونها بالسماد فيصلحون بها الارض اصلاحًا مهمًّا لما فيها من

المواد الكلسيَّة . والثانيـة انهم يدقّونها دقاً ناعماً فيمزجونها بعليف صغار الحيوانات كالعجول والمهار والخرفان فتغذيها وتنمي عظامها بما فيهـا من الفسفات . وكثيرون من الفقراء يرتزقون بجمع هذا القشر وبيعهِ . ولكن يشترط لاستعماله ان يكون نظيفاً

اوَّل كتاب طُبع في اللغات الهنديَّة بيَّن العلامة الانكليزي سير وليم هنتر في المجلة الهنديَّة الملكيَّة (ج ٤ ص١٢) انَّ اول كتاب طُبع في الهند نشرهُ الآباء اليسوعيُّون . ففي سنة ١٥٧٧ حفر الاخ غنزالفس حروف اللغة التاموليَّة وطبع بها التعليم المسيحي . وفي السنة التالية حفر الاب يوحنا فاريا حروفاً غيرها لنشر كتاب تراجم الابرار

أسئلة وأجوبة

س سأل حضرة الخوري ا . د . كم كانت الثلاثون الفضة التي باع بها يوذاس ربَّهُ الثلاثون الفضة

ج الفضة المذكورة هنا هي من النقود الفضيَّة المعروفة ايضاً بالشواقل (sicles) كان يساوي الواحد منها فرنكين و ٨٣ سنتيماً

س وسأل حضرة الدياكونوس نيقولاوس عطّارة ما المراد بقولنا في المشرق (٤ : ٥٢٦) انَّ الروم الملكيين سريان اصلاً ولغةً ومن اي زمن وجدوا سرياناً هل من عهد القديس بطرس وهل كانت طقوسهم وليتورجيّاتهم كلها سريانية

سريانية الروم الملكيين

ج لا بُدَّ للجواب على هذه القضيَّة من مقدَّمة توضح الحقيقة تماماً فنقول : لمَّا قدم الرسل للتبشير بالمسيح في بلاد الشام وجدوا اهلها الوطنيين سرياناً يتكلَّمون بالآراميَّة التي من فروعها الفينيقيَّة والسريانيَّة . وكان دخل بين هؤلاء الوطنيين غرباء كثيرون من جنسيَّات مختلفات من بقايا الممالك العديدة التي فتحت بلاد الشام كالمصريين والبابليين والفرس واليونان والرومان الذين تولّوا على الشام في عهد قاندهم پمپيوس . فكان لهؤلاء الغرباء لغات خاصَّة دخل منها شيء في آراميَّة الوطنيين . امَّا اللغة اليونانيَّة فكان لها نفوذ اعظم كاللغة الفرنسويَّة في ايامنا فشاعت في المدن الكبرى وفي السواحل عند الاعيان والخاصَّة على اختلاف جنسيَّاتهم بل كان بعض العامَّة يتكلَّمون بها لرواج اشغالهم مع كونهم آراميين محضاً . لكن اليونانيَّة لم تبطل الآرامية التي بقيت اللغة

الوطنيَّة . فلمَّا بشَّر الرسل بالمسيح في مدن الشام اقاموا عليها اساقفة كانوا يرونهم اهلًا لذلك مهما كانت جنسيَّاتهم . فكان الاسقف الواحد يرعى نصارى مدينته ويختار لهم كهنة يرشدونهم بالآراميَّة او باليونانيَّة حسب الظروف ومقتضى الحال ويقيمون لهم الطقوس في احدى اللغتين . وانَّما كانوا جميعهم مطيعين لاسقف واحد وفقًا لمبدإ شائع وقتئذٍ : مسيحٌ واحدٌ وايمان واحدٌ واسقف واحد . فبقي الامر كذلك الى القرن الخامس لمَّا ظهرت الشيعتان النسطوريَّة واليعقوبيَّة فخلع اصحابهما نير الطاعة وبقي قسمٌ من النصارى مستقيمي الايمان وهم الذين تبعوا المجمع الخلقيدوني فهؤلاء الاورثذكسيون كانوا في سوريَّة يتكلمون بالسريانيَّة او اليونانيَّة وفي مصر بالقبطيَّة او اليونانيَّة . وكانهم أطلق عليهم اليعاقبة اسمَ الملكيين تهكُّمًا كأنهم لم يتبعوا المسيح بل الملك مرقيان الذي سعى مع البابا لاون الكبير بجمع المجمع الخلقيدوني . وكان الملكيون يجرون طقوسهم في الشام باللغة السريانيَّة او اليونانيَّة كما كانوا يفعلون قبلًا . لكن اللغة اليونانيَّة اخذت بالتقهقر بعد الفتح الاسلامي الى ان بطلت شيئًا فشيئًا . وقامت العربيَّة بدلًا منها وصارت لغةً طقسيَّة منذ نحو اربعمائة سنة فقط . امَّا السريانيَّة فلم تزل اللغة الكنسيَّة بين فئة كبرى من الملكيين ردحًا من الدهر وقد بقي من ذلك آثار عديدة منها ما بطل منذ خمسين نحو سنة كمعلولة وما جاورها وسننشر ان شاء الله قريبًا شيئًا من هذه الآثار

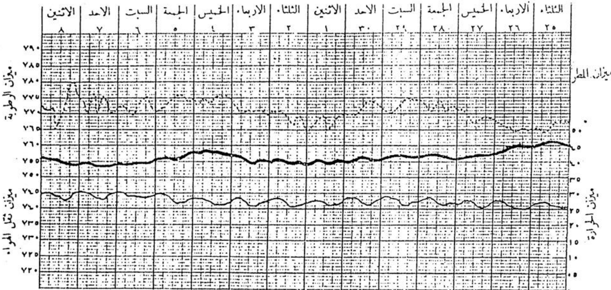
س وسأل حضرة القس اوغسطين البيروتي اللبناني ان نفيده اسماء الملوك الذين حكموا من عهد كورش الى ارتحشستا وفي اي سنة يبتدي تاريخ اسابيع دانيال

ملوك الفرس من قورش الى ارتحشستا

ج حكم قورش من سنة ٥٣٨ الى ٥٢٩ قبل المسيح ثمَّ وليهُ قمباسوس (٥٢٩–٥٢٢) ثمَّ سمرديس او نبوكدنصَّر الثالث (٥٢٢) ثمَّ داريوس الاول (٥٢١–٤٨٦) ثم كسركيس (٤٨٦–٤٦٥) ثمَّ ارتحشستا الاول (٤٦٥–٤٢٤) وهو المعروف بالطويل اليد الذي اصدر الامر في السنة العشرين من ملكهِ الى نحميا (٢ : ١–١٠) ليعود الى اورشليم ويبني اسوارها ومن هذه السنة ابتدأ تاريخ الاسابيع التي ورد ذكرها في سفر دانيال (٩ : ٢٤–٢٧) (راجع الحواشي المعلَّقة على سفر دانيال في الكتاب المقدس من طبعتنا) ل . ش

(اصلاح اغلاط) ٢٠٨ س ١٨ «تبَّه بي» صوابهُ «تپه بي» = ٢٠٩ س ١٢ «تستوقف» ص «تستوقف الابصار» = ٢١٠ س ١٨ «نقصت عن ٣٩» ص «٢٩»

قائمة للآثار الجوّية   من ٢٥ حزيران الى ٨ تموز   ١٩٠١



انَّ الخطّ الضخم (ـــ) يدلُّ على ميزان ثقل الهواء المعروف بالبارومتر — والخطّ الرفيع المتتابع (----) على ميزان الحرارة (ترمومتر) امَّا الخطّ المنقَّط (٠٠٠٠٠) فهو دليل على ميزان الرطوبة (هغرومتر) — والاعداد الدالَّة على درجات ثقل الهواء تدلُّ ايضًا اذا حُذف منها عدد المئات على درجات الرطوبة وقد عُيِّن التبخير وميزان المطر في ٢٤ ساعةً بالملمترات وعُشر الملمترات